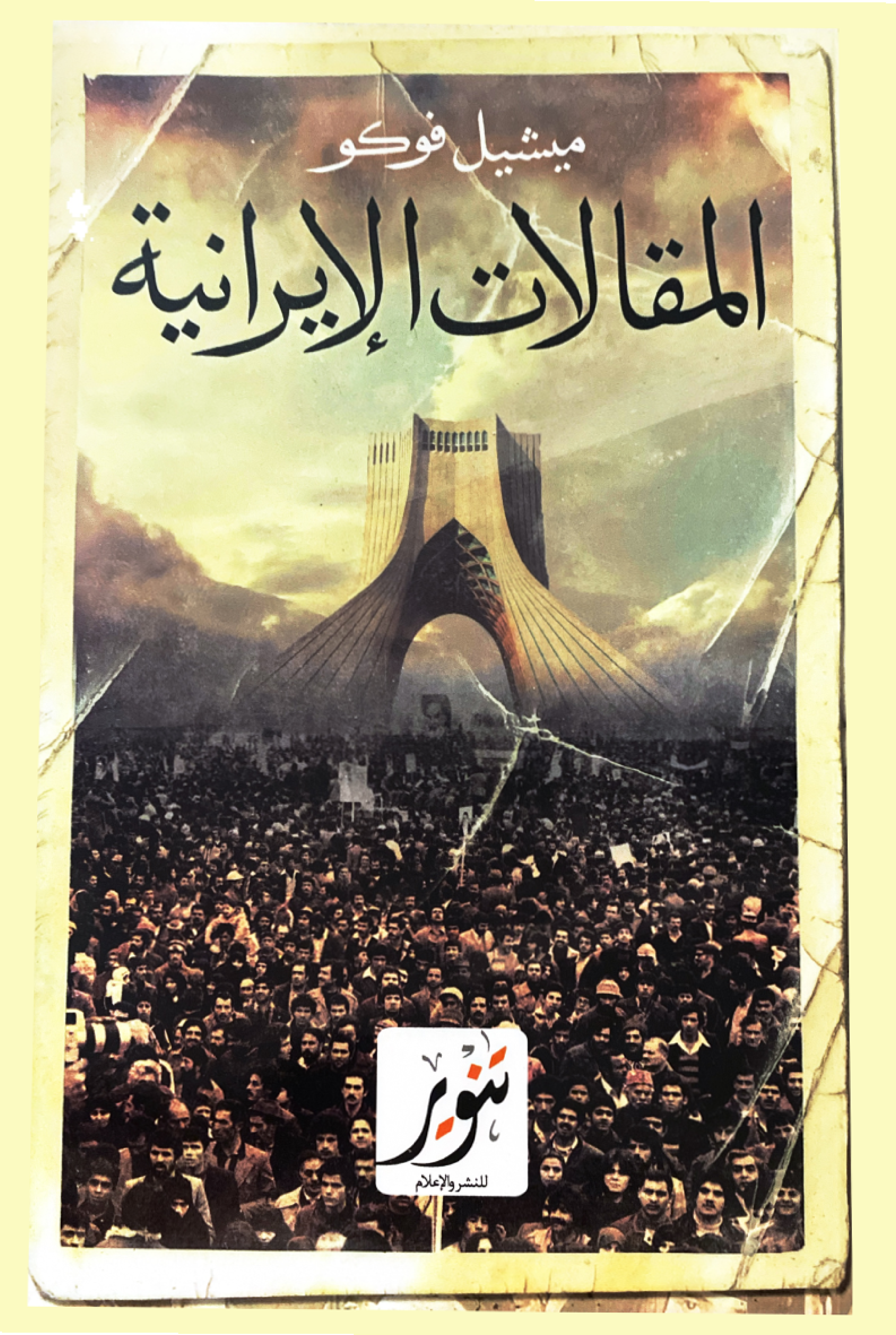


ميشيل فوكو
المقالات الإيرانية
تنوير
للنشر والإعلام

المقالات الإيرانية

ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤م)؛ فيلسوفٌ ومؤرِّخ فرنسيٌّ، من أهم فلاسفة حقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، ومن أكبر رموز التيار ما بعد البنيوي (التفكيكي). ولد لأسرة بورجوازيَّة، والتحق بالمدرسة العُليا للأساتذة في العشرين من عُمره، حيث درس علم النفس والفلسفة، واعتنق الماركسيَّة مدةً من حياته ثم هجرها. وبعد تخرُّجه (١٩٥٢م) بدأ حياة مهنيَّة وفكريَّة موَّارة، موسومة بكثرة السفر والترحال؛ فدرَّس في الجامعة لبعض الوقت، ثم أنفق قرابة خمس سنوات مُلحقًا ثقافيًّا لبلاده في بعض بلدان أوروبا. ولم تحظ رسالتُهُ للدكتوراه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) بشُهرة كبيرة، رغم ثناء المتخصصين عليها. ولم تبدأ شُهرته الحقيقيَّة، بوصفه مفكرًا أصيلًا ومثيرًا للجدل؛ إلا بعد نشر كتابه: «الكلمات والأشياء» عام ١٩٦٦م، حين كان أستاذًا في جامعة تونس. ومن أشهر كتبه: «أركيولوجيا المعرفة»، المنشور عام ١٩٦٩م؛ و«المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن»، المنشور عام ١٩٧٥م.

عومريَّة سلطاني؛ مترجمة وباحثة جزائريَّة في العلوم السياسية. نالت إجازة العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة وهران، وهي مهتمة بحركات الإسلام السياسي. نشرت عددًا من المقالات، وترجمت أبحاثًا ودراساتٍ لعدد من المؤسسات؛ مثل: مرصد الأديان بسويسرا، ومؤسسة قرطبة بجنيف، ومكتبة الإسكندرية بمصر. من أعمالها المترجمة: «**الإسلاميون والعسكر**» لمحمد سمراوي، و«**الأناركيَّة**» لدانيال غيران، و«**إسلام السوق**» لباتريك هايني.

عبد الرحمن أبو ذكري؛ أديبٌ ومفكِّرٌ ومترجمٌ وناشرٌ مصريٌّ. وُلِدَ بالقاهرة، وتخرَّج في كلية الآداب. نشر العديد من المقالات والأوراق البحثية، التي تصب جميعُها في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد الإسلامي في الفكر والحركة. من كتبه المنشورة: «**أفكار خارج القفص**»، و«**تأملات مسلم**»، ومجموعة قصصية بعنوان: «**طير بلا أجنحة**»، ومختارات مُترجمة من شعر مولانا جلال الدين الرومي بعنوان: «**كل يوم**»، علاوة على أعمال أخرى مترجمة؛ منها: «**الفكر السياسي الإسلامي الحديث**» لحميد عنايت، و«**نظرية الثورة الإسلامية**» لكليم صديقي، و«**جذور الثورة الإسلامية في إيران**» لحامد الگار.



Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme Taha Hussein d'aide à la publication de l'Institut français d'Égypte.

حظي هذا العمل بدعم برنامج طه حسين، لدعم النشر الخاص؛ بالمعهد الفرنسي بمصر.

ميشيل فوكو

المقالات الإيرانية

نقله إلى العربيَّة
عومريّة سلطاني

راجعه وحرَّره
عبد الرحمن أبو ذكري

تصدير
محمد صفار



الطبعة الأولى
٢٠٢٠م / ١٤٤١هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤٥٩/ ٢٠١٩م

ISBN 978-977-5015-36-5



هذه هي الترجمة العربية الكاملة لأربعة عشر مقالًا مأخوذة من المجلد التالي:
Dits et Écrits 1954-1988: Michel Foucault.



ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر
البريد الالكتروني: info@dartanweer.com
dartanweereg
www.dartanweer.com

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم

(فصلت : ٣٣)

المحتويات

تصدير

في كتابه «الثامن عشر من برومييه»، أورَد «كارل ماركس» إحدى المقولات التأسيسية للاستشراق، التي توضح ماهيته وأهميَّته؛ إذ قال «إنهم [أي الشعوب الأخرى غير الغربية] لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ومن ثم يجب أن يُمَثَّلوا».[1] وتكشف مقولة ماركس هذه، التي لم يفت «إدوارد سعيد» تسليط الضوء عليها؛ عن أكثر من مدلول، يحدد كل منها الأبعاد الرئيسة أو الخطوط العريضة للمشروع الاستشراقي.

فبادئ ذي بدء؛ تُعَدُّ مسألة تمثيل الشرق هي المهمة الأساسية، التي أخذ الاستشراق على عاتقه الاضطلاع بها. ولا يعني التمثيل هنا مجرَّد محاولة رسم ملامح الشرق، بل هي عمليَّة إخراج فنيٍّ تسعى لتحويل الشرق، بمختلف عناصره وشخوصه ورموزه وعاداته وتقاليده ومعتقداته؛ إلى مادة لعرضٍ مسرحي لا يتوقف.[2] أضِف إلى ذلك أن بناء الفعل للمجهول في مقولة ماركس -في أصلها الألماني- يكشف عن التشابُك بين العلاقة مع الآخر والعلاقة مع الذات في العقل الأوروبي. فعلى حد قول سعيد؛ ترمي عملية التمثيل تلك إلى تجسيد الشرق على خشبة المسرح، الذي ينتمي جمهوره وممثلوه ومديروه إلى أوروبا؛ وإلى أوروبا وحدها.[3]

---

(1) Edward Said, *Orientalism*, London: Routledge, 1st ed, 1978, p. 20.

(2) *Ibid.*, pp. 62-63.

(3) *Ibid.*, pp. 71-72.

ولعلَّ ما يؤيد وجهة النظر السالفة، هو ما ذكره «سمير أمين»، عند تحليله لمركَّب المركزية الأوروبية؛ من أن تشكُّل الهويَّة الأوروبية قد تأسَّس على اختراع الغرب بوصفه «كائنًا أزليًّا» مُتفرِّدًا منذ لحظة الميلاد، ليُشكِّل النقيض الموضوعي لتصورٍ مصطنعٍ عن «الآخر»؛ إذ تستمِدُّ الهويَّة الأوروبية شرعيَّة وجودها من كونها نقيض هذا «الآخر». وهذا ما جعل أمين يَعُدُّ الاستشراق، بوصفه تمثيلًا للآخر (الشرق)؛ أحد مكونات مُركَّب المركزية الأوروبية، علاوةً على المكوِّنات الأخرى (أسطورة الأصل اليوناني، وافتراض الاستمرارية العرقيَّة، والقيم المسيحية المشتركة).[1] ليس هذا فحسب، بل لقد شكَّل الاستشراق، بوصفه نمطًا من أنماط التمثيل الدرامي للآخر؛ نوعًا من السيطرة وضربًا من الهيمنة التي استنَّتها أوروبا في علاقتها بالشرق، منذ أن اصطحب نابليون في حملته الشهيرة -على المشرق الإسلامي- خبراء ومتخصصين في شتى المجالات، ليُدَشِّن بذلك الارتباط العضوي بين الكولونيالية بوصفها نمطًا للسيطرة، وبين الاستشراق بوصفه نمطًا للمعرفة.[2]

وفي هذا الإطار، تعرِض هذه المقالات -في مُجملِها- محاولة استشراقيَّة لتمثيل الآخر، لعلَّنا نستطيع من خلالها استِشفاف الملامح الأساسيَّة لعملية الإخراج المسرحي للآخر؛ وذلك رغم أن هذه المحاولة لا تنتمي إلى الحقل الأكاديمي للاستشراق. لقد دبَّج الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو مقالاته عن الثورة الإسلاميَّة في إيران -محور هذا الكتاب وموضوعه- في غمار أحداث الثورة، وهو يَقِفُ فيها موقِفًا أقرب ما يكون إلى الحياد المشوب بالتعاطُف مع «الآخر»، ذلك الموقف الذي سيُهيئه لإعادة تعريف الحداثة ذاتها على أساسٍ جمالي، بل وإلى محاولة صياغة نظريَّة للمقاومة تستكمِلُ تحليله لعلاقات القوة، وإن كانت المحاولة قد وئِدَت في المهد.

***

(1) Samir Amin, *Eurocentrism*, translated by Russel Moore, UK: Zed Books, 1989, pp. 89-103.

(2) Edward Said, *Orientalism*, op. cit., pp. 3-4.

يُعَدُّ ميشيل فوكو أحد أبرز الفلاسفة الفرنسيين، وقد اشتهرت كتاباته النقديَّة عَقِبَ أحداث ١٩٦٨م في فرنسا. أفاد فوكو من أفكار نيتشه، التي تنتقد مشروع الاستنارة؛ وكذلك من أفكار «مارتن هيدغر». ويُعَدُّ مشروع فوكو أو خطابه، على حد وصفه؛ محاولة لنقد المشروع الحداثي، وأفكار عصر الاستنارة. وقد كان لخطابه سياق ثقافي خاص، وموضوعات، وبنية مفاهيمية، ووحدات للدراسة، وكذلك استراتيجيَّات للدراسة. وكانت الموضوعات الثلاثة الرئيسة لمشروعه، وهي: أساليب القوة، وأساليب المعرفة، وتقنيات الذات؛ طرقًا مُتباينة ومتقاطعة لموضوعٍ رئيسيٍّ أعلى، وهو جينيالوجية[1] الذات/ الفاعل الحداثي.

وقد كان موقف فوكو من الحداثة هو الذي أفضى به إلى مشروعٍ صحافي، لدراسة الحدث الثوري الإيراني؛ الذي شكَّل وحدة التحليل التي وضعته في صف ما أسميه بـ«الاستشراق الإيجابي». ورغم نقد فوكو للعقل، بوصفه إحدى السرديات؛ فإنه يدعونا لإعادة التفكير فى العلاقة بين العقلانيَّة والهمجيَّة، من خلال فتح عيوننا على حاجة المنظور العقلاني للعنصر الجمالي.[2] إذ يرى فوكو أن لغة الاستنارة، ذات الطابع الإنساني؛ قد ربطت بين تنمية الطاقات والمهارات، وبين تكثيف علاقات القوة، ومن ثم؛ فالعنصر الجمالي الذي يدفع المرء لإنتاج ذاته، كعمل فني؛ يفصم الرباط السابق.

ويبدو فوكو هنا تلميذًا لنيتشه، ومتمرِّدًا عليه فى آن؛ فقد التقط من نيتشه التزامه بـ«تجاوز الذات»، غير أنه سيَّس ذلك النشاط، الذي كان ميدان معركته عند نيتشه

---

(١) «جينيالوجيا Genealogy» هو مصطلح استقاه فوكو من كتاب نيتشه «جينيالوجيَّة الأخلاق»، وهو عبارة عن محاولة كشف زيف أية نقطة بداية، من خلال دراسة تأثير علاقات القوة وآلياتها على ميلاد أى أصل أو مرجع أو بداية. ولقد تُرجم المصطلح فى العربية إلى «النسابية»، غير أنني أرى عدم صلاحية الترجمة؛ لأن الفكرة الجينيالوجية تهدف إلى كشف عدم وجود أصل أو سبب أوحد (أو نسب) من خلال تتبع الظاهرة فى مسالكها ودروبها المتعرِّجة. وقد فضَّلتُ عدم ترجمة المصطلح إلى لفظ عربي حتى لا يتم تشويه دلالة اللفظ العربي، وحتى لا يتم تجذير المصطلح بحيث يتوهَّم بعضهم أن له أصلًا عربيًّا، كما حدث لمفاهيم العلمانية أو الاستعمار مثلًا.

(2) Jane Bennett, «How is it, then, that we still remain barbarians?» in *Foucault, Schiller, and the Aestheticization of ethics, Political theory*, 1996, 24 (4), p. 667.

مقصورًا على العالم الجوَّاني؛ ليغدو تمظهره عند فوكو انتهاكًا للممارسات الاجتماعية والذهنيَّات السائدة.[1] وعلى هذا المستوى النقدي الجمالى، للحداثة الغربية؛ استقبل فوكو الإسلام بوصفه خبرة سياسية-أخلاقيَّة في كتاباته عن الحدث الثوري الإيراني. وقد شرع فوكو من هذا المنطلق فى محاولة، أسميتها بالاستشراق الإيجابي؛ حدَّد هو مبادئها فى ردٍّ له على رسالة من سيدة إيرانيَّة مسلمة تقيم بباريس. إذ يرفض فوكو الموقف الغربى، المستمر منذ ألف سنة؛ الذي يضع كل فضائل الإسلام فى قالب واحد لابد من رفضه باسم «الهوس الدينى». علاوة على ذلك، فهو يُدرك أن إشكاليَّة وجود الإسلام، بوصفه قوة سياسيَّة؛ هي قضية تأسيسيَّة من قضايا عصرنا، وستظلُّ كذلك لسنوات قادمة؛ لذلك كانت أول مقتضيات مقاربتها، ببعض الذكاء؛ هي عدم مزج ذلك بالكراهية ابتداءً.[2] إن دراسة فوكو للحدث الثوري الإيراني مرتبطة أشد الارتباط بالسؤال القديم الذي طرحه كانط: «ما الاستنارة؟»؛ ذلك أن الثورة هى ذروة مُنحنى الذاتيَّة السياسيَّة الحداثيَّة.

وقد أضاف فوكو الإسلام لمعادلة الحداثة، واستطاع، من ثم؛ أن يلمح فيه وميض «حلٍّ لمعضِلَة الحداثة الرئيسة»، ألا وهى غياب «الروحانيَّة السياسيَّة»، ذلك العامل الذي يتم تجاهُله فى سياق الحداثة ومشكلاتها الفلسفية والسياسية. إذ يطرح الإسلام، بروحانيته السياسيَّة الديناميكيَّة؛ بديلًا للشكل المهيمن للذاتيَّة الغربيَّة الماديَّة من خلال تأسيس ذاتيَّة روحانيَّة، تتشكَّل في صيرورة الممارسات الدينيَّة للإسلام. لقد استطاع الإسلام، فى غمار الحدث الثوري في إيران؛ تصفية السياسة اللاروحانيَّة وتعريف كل من السياسي والروحي من خلال الآخر، وذلك لإفساح الطريق لحياة سياسيَّة جديدة لا تشكل عقبة أمام المكوِّن الروحي، وإنما

(1) David Owen, *Genealogy as exemplary of antique: reflections on Foucault and the imagination of the Political, Economy & Society*, 1995, 24 (4), p. 497.

(٢) يُراجع المقال المعنون: «ميشيل فوكو يرد على قارئة إيرانيَّة»؛ في هذا الكتاب.

تؤمِّنُ وجوده وازدهاره.[1] ليس هذا فحسب، بل إن تجربة فوكو في إيران جعلته يميل إلى رؤية الشاعر الفرنسي بودلير للحداثة، بوصفها موقفًا أو اتجاهًا عُرِفَ بـ«التأنُّق/ الداندیزم»؛[2] إذ يتعانق المكونان الجمالي والأخلاقي ويتآزران. لقد كان للحدث الثوري الإيراني، أو للروحانية السياسية للإسلام؛ تأثيرهما على إعادة فوكو تعريف الحداثة بوصفها موقفًا أو طابعًا.[3]

وقد كان لدراسة فوكو للإسلام، من خلال الحدث الثوري الإيراني؛ مدخلان:

أولهما الإسلام بوصفه نظامًا للحقيقة (Regime of Truth)؛[4] إذ كان الإسلام هو المعجم والاحتفال والدراما اللازمنيَّة، التي احتضنت دراما الإيرانيين؛ الذين سخَّروا وجودهم في الصدام مع صاحب الهيمنة. ويُعَدُّ نظام الحقيقة الإسلامي فريدًا من نوعه، إذ له شكل برَّاني وجوهر جوَّاني؛ فكلُّ ما يُقالُ صراحةً، ويتشكَّل على صورة قانون برَّاني أو قاعدة شرعيَّة؛ له في ذات الوقت معنى آخر جوَّاني. ولا يُعَدُّ ذلك غموضًا ذميمًا، وإنما هو في حقيقة الأمر مستوى أساسي، جد قيم؛

(1) Georg Stauth, Revolution on Spiritless times: an essay on Michel Foucault's enquiries into the Iranian revolution, *International Sociology*, 1997, 6(3), p. 269.

(٢) تختلف رؤية الحداثة بوصفها موقفًا أو اتجاهًا أو طابعًا (Ethos)، عن التعاطي معها بوصفها مرحلة تاريخية معينة؛ يهيمن فيها العقل ويسيطر ويبسط نوره على كافة المجالات، من خلال الكشف عن القوانين المنظِّمة لها. فالحداثة كموقف تعني الوسيلة التي يرتبط من خلالها الإنسان بذاته وبالزمان الذي يعيش فيه، بحيث يغدو قادرًا على سبر غورهما من أجل إعادة تشكيلهما، كأنه عمل إبداعي جمالي؛ وهذا ما أسماه فوكو بـ«إضفاء الطابع الجمالي على الوجود Aestheticization of Existence». وقد تأثر فوكو في تعريفه هذا بمبدأ الـ«داندیزم Dandysme»، أو التأنُّق؛ عند الشاعر الفرنسي بودلير.

(3) Armando Salvatore, Islam and the Political Discourse of Modernity, *International Politics of the Middle East Series: vol. 4*, UK: Itacha Press, 1997, 1st ed, p. 152.

(٤) تجدر الاشارة إلى أن فوكو قد سك اصطلاح «نظام الحقيقة» من دراسته للخطاب، وذلك حتى يوضِّح أن لغة الخطاب ذات مستوى ظاهري، وليس لها جوهر؛ وأن ظاهر النص هو الذي يُوجِدُ باطنه. فليس هناك أرضيَّة أصلية أو ثابتة، وإنما هناك علاقات قوة تحكم مقولات الخطاب من الداخل؛ لذا سمى النظام المكون من تلك العلاقات بـ«نظام الحقيقة»، ثم هناك علاقات القوة، المرتبطة بالممارسات الخطابية؛ التي تشكل ما يسميه فوكو بالجهاز أو التنظيم (Dispositif). وجليٌّ أن وصف فوكو لنظام الحقيقة في الإسلام، من حيث وجود ظاهر وباطن؛ يدل على أنه قد أدرك اختلاف السياق الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وأن الإسلام دين متميز له خصوصيته التي لا ينبغي تجاهلها.

من مستويات المعنى العميق، الذي قد لا تدركه محاولات التدقيق. ويؤكد فوكو الطاقات الثورية الكامنة فى نظام الحقيقة الإسلامي، إذ إن مفرداته البسيطة تعد متنفَّسًا للتطلُّعات والمشاعر، التي لا تجد لها ألفاظًا أخرى لتحمل معانيها.

إذ الإسلام اليوم، مثلما كان فى الماضى؛ هو عند فوكو الشكل الذي تتخذه الصراعات السياسية التي بمقدورها تعبئة الجماهير. إن نظام الحقيقة الإسلامي قادرٌ على استخراج الأحزان والمآسى والإحباطات؛ ليخلق منها قوة، لأنه ببساطة شكل من أشكال التعبير، ونمط للعلاقات الاجتماعية، وسلوك معيشي؛ يسمح للإنسان بالإنصات للآخرين والتعايش معهم فى الزمن الخاص بهم. لذا، فليس من المستغرَب أن يكون الإسلام، على مر العصور؛ قادرًا على مد كل معارِضٍ للدولة بقوَّةٍ ضاربة.

أما ثاني المدخلين فهو الإسلام بوصفه تقنيات للذات (Self-techniques):[1] إن الشعائر التعبُّديَّة والرياضات الروحية بقدر ما هى تقنيات للذات، سوف تصبح محركات للثورة، وفى طليعة آلياتها؛ فصلاة الجماعة ومجالس العزاء وخُطَب المساجد، وأشرطة الكاسيت، التي تتضمن أحاديث الإمام الخميني وغيره من العلماء؛ كانت من أدوات الثورة بقدر ما كانت تقنياتٍ للذات. وقد كانت صلاة الجماعة من أبرز آليَّات الثورة وأكثرها فاعلية. إذ حينما كانت الصلاة تبدأ، أثناء التظاهرات؛ كان كل شيء يسكُن (لنظامها وقدسيتها واحتفاليتها)، حتى الزمن كان يذوب ولا تعود له أيَّة معالم سوى تتابُع حركات المصلين. لقد جسَّدت الصلاة ولاءً أعلى ومعتقدًا أسمى، وحينذاك؛ أدرك ضباط الجيش (المكلَّفون بقمع التظاهرات) أنهم يواجهون سلاحًا أمضى، سلاحًا يفوق ما فى ترسانتهم من أسلحة حديثة فتَّاكة.

---

(١) «تقنيات الذات» هى نوع من التقنيات التي تمكن الفرد من الاضطلاع، بوسائله الخاصة؛ بمجموعة من العمليات على نفسه وبدنه وأفكاره وسلوكه، ومن ثم يغدو قادرًا على تغيير ذاته، والوصول إلى مستوى معين من الكمال أو السعادة أو التطهُّر أو القوة غير الطبيعية. وهذا النوع من الآليَّات هو ما يسميه فوكو بـ«تقنيات الذات».

لقد أفرز «نظام الحقيقة» و«تقنيات الذات»، فى الإسلام؛ تيارًا غامضًا أحاط بالجميع، وألهم الرجال والنساء معًا الخروج إلى الشوارع والتظاهُر ضد البنادق والدبابات. وقد ربط ذلك التيار الروحي الغامض بين رجل عجوز، مرَّ على نفيه خمسة عشر عامًا آنذاك؛ وبين شعبٍ كاملٍ يرنو إلى ذلك الرجل. كانت «الإرادة الجماعيَّة» تُطِلُّ برأسها. هذه التسمية التي ساد الاعتقاد، لوقت طويل؛ أنها أسطورة سياسيَّة أو أداة تحليليَّة، لا يمكن رؤيتها؛ أمسى من الممكن رؤيتها فى كل شوارع إيران. لقد عبَّرت هذه «الإرادة الجماعية»، التي برزت كحدثٍ تاريخي؛ عن رفض شعب بأسره رفضًا راديكاليًّا لكل الإرث الذي شكَّل مصيره السياسي طيلة قرون. وما من أحدٍ يستطيع أن يزعم بأن ذلك الرفض المجتمعي، رغم اتساع نطاقه؛ هو رفض مضطرب أو غير واعٍ بنفسه، بل على العكس؛ فهو يتقدَّم بثباتٍ وكفاية نادرين. ورغم انعدام وجود المؤسسة أو الفرد أو الأيديولوجية السياسيَّة، التي تستطيع التفاخُر أو الادعاء بأنها تمثِّل تلك الإرادة؛ فإن هذه «الإرادة الجماعيَّة» ظلَّت موحَّدةً إلى درجة غير متصوَّرة. وقد كان الاصطلاح المعبِّر عن تلك الإرادة هو: «الحكومة الإسلامية».(١)

ويطرح فوكو بعض التساؤلات، التي يَعُدُّها مداخل مرفوضة؛ لدراسة الحدث الإيراني، ومنها:

- هل يُعَدُّ ما وقع فى إيران ثورة؟

يعتمد التعريف الكلاسيكى للثورة على آليتين؛ هما: الصراع الطبقى والصدام الاجتماعي من جهة، والطليعة أو الطبقة أو الحزب أو الأيديولوجية، التي تعد بمنزلة رأس الحربة؛ من الجهة الأخرى. وقد غابت في إيران هاتان الآليتان، اللتان تُعَدَّان علامة مميزة ومؤشرًا واضحًا على الثورة؛ غيابًا تامًّا. ومن ثم، فلم يكن ما حدث ثورة، إذا طبَّقنا وجهة النظر الغربيَّة على إيران. يرد فوكو ذلك بأن المعنى الواسع للفظة «ثورة» يجعل الحدث الإيراني ثورة من نوع غريب وخاص؛

(١) راجع مقالة فوكو، في هذا الكتاب؛ المعنونة: «بم يحلُم الإيرانيون».

فإنَّ ما وقع كان تمرُّدًا للرجال العُزَّل، الذين أرادوا أن يزيحوا عن كاهلهم الثِقَل الهائل، الذي ننوء به جميعًا؛ وتنوء به كواهلهم، على وجه الخصوص؛ ألا وهو النظام العالمي. لقد كان ما حدث في إيران هو أول عصيانٍ واسع المدى ضد نظام كونيٍّ، من خلال حركة تدفعها رياح ذلك الدين العجيب... الدين الذي يتحدَّث عن العالم الآخر أقل كثيرًا مما يتحدَّث عن تغيير هذا العالم.(١) إذ لم تكن الدراما الإيرانية معنيَّة بمجرَّد تغيير النظام أو الإدارة الفاسدة أو التنظيم السياسي أو السياسة الخارجية، إنما الأهم من ذلك هو انصباب الحدث الإيراني على تغيير النفس، وتغيير طريقتها فى الوجود، وعلاقاتها بالآخرين وبالأشياء وبالأبديَّة وبالله (ﷻ)... لقد رأى فوكو أن الثورة الحقيقيَّة ستقع إذا تمَّ ذلك التغيير الراديكالي.(٢)

- **هل يُعَدُّ ما جرى فى إيران صراعًا طبقيًّا؟**

إذا كانت محاولات التحديث، والفساد والاستبداد؛ قد شكَّلت النظام الإيراني، وما أفرزه من بؤس وفقر شديدين؛ وإذا كان المهيمن على المشهد لا شيء سوى الإخفاقات الاقتصادية والتفاوتات الطبقيَّة بين شمال طهران وجنوبها، وبين البازار والعمال، وبين ساكني الحضر وساكني الريف؛ فلم لا يمكننا القول إن ما جرت وقائعه فى إيران، من اضطرابات ثوريَّة؛ قد نتج عن المصاعب الاقتصادية، وأن الشفرات الدينية الغامضة ليست سوى واجهة لصراعٍ طبقي طاحن، يقود لهيبه قُطعان الجماهير إلى حظيرة الدين؟

يرى فوكو أن هذا التفسير الماركسى للحدث الإيراني، الذي سمعه بنفسه من العديد من الأكاديميين الإيرانيين في جامعة طهران؛ هو ما يمكن أن يُثير حفيظة ماركس ذاته، ويجعله يحتج صارخًا. وعند فوكو أن الجميع يستشهِدونَ عادةً بماركس، الذي صرَّح بأن «الدين أفيون الشعوب». غير أن العبارة السابقة عليها مباشرة في كلام ماركس، التي يتجاهلها الجميع كليًّا؛ نصها: «الدين روح

---

(١) راجع المقالة المعنونة: «الزعيم الأسطوري لثورة إيران».

(٢) راجع الحوار الوحيد مع فوكو، الذي تضمَّنه هذا الكتاب؛ بعنوان: «إيران؛ روح عالم بلا روح».

عالم لا روح له». ومن ثم، يدعو ميشيل فوكو لإعادة مراجعة موقف الغرب من الإسلام... إذ كشفت الثورة الإسلاميَّة في إيران أنه لم يكن أفيونًا للشعوب، بقدر ما كان روحًا لعالمٍ بلا روح.

محمد بشير صفار؛[1]

(١) أكاديمي ومُفكِّر ومُترجم مصري. نال درجة دكتوراه العلوم السياسية من جامعة برلين الحُرَّة، وهو حاليًا أستاذ النظرية السياسيَّة بجامعة القاهرة. مُهتمٌّ بالفلسفة السياسية، والفكر السياسي الإسلامي الحديث. من كتبه المنشورة: **«الأصوليات»**، و**«دراسات في الفكر السياسي المصري»**، علاوة على العديد من الترجمات؛ أهمها: ترجمته لكتاب **«مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية»** لأندرو هيود، وكتاب **«الأزهر والشيعة»** لراينر برونر.

ماذا يفعل الجيشُ حين تُزلزَل الأرض تحت أقدامه؟[1]

تبدأ سلسلة التحقيقات الصحفية، التي اضطلع بها ميشيل فوكو، عن الثورة الإيرانية؛ من هذا التاريخ [٢٨ سبتمبر ١٩٧٨م]. ففي مايو ١٩٧٨م؛ طلب إليه الناشر الإيطالي «ريزولي Rizzoli» أن يُضمِّن وجهات نظره عن إيران في مقالاتٍ دوريَّةٍ يكتبها ليومية «كورييرِ ديلا سيرا» الرائدة، التي صار أحد المساهمين فيها؛ وكان ريزولي قد ترجم كتاب فوكو المعنون: «تاريخ الجنون»[٢] عام ١٩٦٣م. فاقترح فوكو تشكيلَ فريقٍ من المثقَّفين ليعملوا مراسلين، يتنقَّلون إلى الأماكن التي تولَدُ فيها هذه الأحداث، وتموت؛ قبل أن تتحوَّل إلى أفكار. وفي شهر

---

(1) September 28, 1978: «L'armée, quand la terre tremble». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 662-668.

(٢) العنوان الكامل لهذا الكتاب هو: «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي»، وقد نشره فوكو عام ١٩٦١م. وهو في الأصل أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه. وقد صدرت طبعته الثانية عام ١٩٧٢م، وهي الطبعة التي تُرجِمت إلى العربية عام ٢٠٠٥م.

وقد ظلَّ فوكو وفيًّا -على نحو ما- لكامل مضمون هذا الكتاب، وهو يتأمَّل الثورة الإيرانية بعيون مفكر وكاتب صحافي؛ إذ يقول في وصفها مثلًا: «ربما كان هذا أول تمرُّدٍ عظيم ضد الأنظمة الكونية، وهو الصورة الأكثر حداثة للانتفاضة والأشد جنونًا»؛ حيث يبرز تركيزه على عوامل يمكن عدها «غيبيَّة» -يسميها بالكونية- إذ تدفع بالإنسان نحو الانتفاضة والتمرُّد، بحيث تهون الحياة في مواجهة المطالب غير القابلة للمساومة عند أصحابها. ولعل فوكو يعد ذلك ضربًا من الجنون، الذي تتبَّعهُ في أطروحته؛ لكنه جنون كامن في سائر الحركات الثورية التي تروم الانعتاق من واقع مهيمن شديد الوطأة، حيث الجنون هنا ليس فقدانًا للوعي؛ بل هو ذات الوعي بأهمية رفض هذا الواقع المهين وتغييره جذريًّا، بخرق العادات والخروج من المألوفات؛ أيًّا كان الثمن. وفي إحدى المقالات -التي يضمها الكتاب الذي بين يدي القارئ- يصف فوكو الانتفاضة بأنها الخروجُ من مسار التاريخ، وصنعُه، في الوقت ذاته؛ إذ يصير المتمرد أو المنتفض فاعلًا عاقلًا، لكنه يتحدَّى القوانين والنواميس المستقرة كلها، حتى لو كلَّفه ذلك حياته. وهو لا يُقدِمُ على ذلك إلا محاولة منه لأن يبلغ صوته إلى الآخرين. ولعل أفضل عبارة صاغها فوكو، تعبيرًا عن هذه الفكرة؛ هي قوله: «ولأنَّ الإنسان الذي ينتفض هو في نهاية المطاف إنسانٌ يستعصي على التفسير؛ فلا بد إذن من أنَّ اجتثاثًا ما يقع فيُحدِث انقطاعًا في مجرى التاريخ وسلاسله السببيَّة الطويلة، بحيث ينتهي هذا الإنسان فعليًّا إلى تفضيل مواجهة خطر الموت على يقين الطاعة والخضوع». (المترجم)

أغسطس، من العام نفسه؛ جذب الحريق الذي اندلع في سينما ركس في عُبادان (بالفارسيَّة: آبادان) انتباهَ العالم إلى الأحداث الجارية في إيران.[1] وقد رأى فوكو آنذاك أَنْ يتكفَّل بمهمَّة إعداد التقرير الأول بنفسه؛ إذ سبق له أن تدخَّل لصالح بعض المعارضين الإيرانيين، وهو يُدرِكُ -أكثر من غيره- الفظائع التي يمكن أن يرتكبها جهاز السافاك (بالفارسيَّة: ساواک).[2] بدأ الرجل عمله بدراسة الوضع في إيران؛ فقرأ لـ«پول ڤياي Paul Vieille» و«هنري كوربان». والتقى «أحمد سلامتيان»،[3] مساعد «كريم سنجابي»؛[4] زعيم الجبهة الوطنية. كما زار إيران مرتين: الأولى في الفترة الممتدَّة من السادس عشر إلى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٨م، أما الثانية فامتدَّت من التاسع إلى الخامس عشر من نوفمبر إبَّان العام نفسه. وقد استقبله آية الله شريعتمداري[5] في منزله بمدينة قُم، في العشرين من سبتمبر. ويوصَف شريعتمداري بأنه الشخصية الدينية الثانية في البلاد، والأب الروحي لليبراليين، وهو معارضٌ لاضطلاع القوى

---

(١) يراجع التسلسل الزمني للأحداث في الصفحات التالية.

(٢) أنشأ الشاه هذا الجهاز عام ١٩٥٧م، كإجراء وقائي؛ بعد إعادته إلى العرش بانقلاب أمريكي. والاسم اختصار للعبارة الفارسيَّة: «سازمان امنيت واطلاعات كشور»؛ أي: منظمة المعلومات والأمن القومي. وقد تعاقب على إدارة الجهاز، الذي كانت وظيفته الأساسية مراقبة المعارضين؛ أربعة مديرين كان أولهم -مؤسسه- «تيمور بختيار»، أما آخرهم -زمن الثورة الإسلاميَّة- فكان «ناصر مقدم». وبعد انتصار الثورة الإسلامية، في فبراير ١٩٧٩م؛ عمد الإمام الخميني إلى حل السافاك، واستبدله بوزارة الاستخبارات والأمن القومي (بالفارسية: وزارت اطلاعات جمهوری اسلامی ایران). (المراجع)

(٣) سياسي وبرلماني ومثقف إيراني. ولد عام ١٩٤٤م، وحصل على شهادة في العلوم السياسية من فرنسا. عمل في وزارة الخارجية، وقاد حملة «أبو الحسن بني صدر» للترشح للرئاسة عام ١٩٨٠م. (المراجع)

(٤) سياسي ليبرالي إيراني (١٩٠٤م- ١٩٩٥م)؛ كان أحد مؤسسي وقادة الجبهة الوطنية عام ١٩٦٧م، وهي التي تسمى: «الجبهة الوطنية الثالثة»، التي ضمَّت كل الأحزاب المعارضة عدا الشيوعيين. وقد عمِلَ وزيرًا للتعليم في عهد الدكتور مصدق، وكان من أكبر أنصاره؛ لذلك تحول إلى واحد من أشد معارضي الشاه وحكمه، بعد الإطاحة بمصدق. وفي عام ١٩٧٨م، أعلن دعم «الجبهة الوطنية» الكامل للثورة وللإمام الخميني، بعد أن أدرك استحالة تنحية الشاه بغير ثورة. ثم شغل منصب وزير الخارجية في أول حكومة بعد الثورة، من فبراير إلى أبريل ١٩٧٩م؛ ليستقيل بعدها ويتحوَّل إلى معارض لنظام الإمام الخميني. وقد غادر إيران عام ١٩٨٢م إلى المهجر. (المراجع)

(٥) آية الله سيد محمد كاظم شريعتمداري (١٩٠٦-١٩٨٦م)؛ كان أبرز علماء الحوزة المعارضين لاضطلاع العلماء بأيَّة دور سياسي، ومن ثم اعتُبِرَ أشد نقاد الإمام الخميني ونظريَّته السياسيَّة. وقد ندَّد باستيلاء طلاب خط الإمام على السفارة الأمريكيَّة، فيما عُرِفَ إعلاميًّا بـ«أزمة الرهائن». وقد اتُّهِمَ عام ١٩٨٢م بالضلوع في محاولة لاغتيال الإمام الخميني وقلب نظام الجمهوريَّة الإسلاميَّة، وأبقي قيد الإقامة الجبريَّة حتى وفاته في منزل بمدينة قُم. (المراجع)

الدينيَّة [علماء الحوزة] بالسُلطة السياسية. وقد تولَّى الترجمة بينهما مؤسسُ لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان: «مهدي بازرگان».[1]

التسلسل الزمني للأحداث في إيران:

أحداث العام ١٩٧٨م

- الثامن من يناير: أدَّى مقال منشور في صحيفة حكومية[2] إلى احتجاجاتٍ في مدينة قُم المقدسة؛ إذ نال من الإمام الخميني، المنفيِّ إلى مدينة النجف العراقيَّة منذ عام ١٩٦٣م. وقد قمع الجيش المظاهرات التي اندلعت بوحشيَّة، ثم ترافَقَت مراسم الحِداد على القتلى، طوال الأربعين يومًا التالية؛ مع احتجاجات عمَّت سائر المدن الإيرانية، وقد قُمِعَت هي الأخرى.

- التاسع عشر من أغسطس: اندلع حريق سينما ركس في عبادان؛ فأوقع ثلاثمئة وسبعة وسبعين ضحية. كانت السينما تعرِضُ أحد الأفلام المحظورة عن احتجاجات الفلاحين، وقد أدان السكان الاستفزاز الذي تعرَّضوا له من الأجهزة الأمنية.

- السابع والعشرين من أغسطس: عيَّن الشاه «شريف إمامي»[3] رئيسًا للوزراء، وكانت مهمته الرئيسة هي الوصول إلى تسوية.

- بين الرابع والسابع من سبتمبر (صادفت نهاية شهر رمضان): شَهِدَتِ طِهران مظاهرات عارمة رغم حظر التظاهُر، وكانت هي المرَّة الأولى من نوعها خلال خمسة عشر عامًا.

---

(١) الملاحظات التي تُستهلُّ بها بعض المقالات، بخط ثقيل أصغر من خط المتن؛ هي ملاحظات محرِّر النص الفرنسي، للتعريف بسياق بعض المقالات، أو بردود الأفعال الناجمة عنها. كذلك الهوامش التي لم تُنسب للمترجم أو المراجع؛ فهي له. (المراجع)

(٢) كان المقال، المنشور في صحيفة «اطلاعات» الحكوميَّة؛ يتَّهِمُ الإمام الخميني بالعمالة للبريطانيين، و«خدمة الاستعمار»، وهي نفس الحُجَّة التي استعملتها كل الأنظمة ما بعد الكولوياليَّة ضد مُعارضيها، والإسلاميون منهم على وجه التحديد. وفي اليوم التالي مباشرة؛ اندلعت التظاهُرات الاحتجاجيَّة في مدينة قُم، وتم قمعها بوحشيَّة خلفت حوالي عشرين قتيلًا. ويعد هذا المقال، وما نجم عنه؛ هو الشرارة الحقيقيَّة للثورة. (المراجع)

(٣) جعفر شريف إمامي (١٩١٢-١٩٩٨م)؛ سياسي إيراني من أقرب المقرَّبين من الشاه، شغل منصب رئيس الوزراء لمرتين؛ الأولى بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦١م، والثانية في عام ١٩٧٨م؛ قبل أن يستقيل من منصبه بسبب الاضطرابات التي شهدتها البلاد. وقد شغل إمامي منصب رئيس مجلس شورى النظام الملكي الإيراني (بالفارسيَّة: مجلسِ سنا)، ورئاسة مؤسسة بهلوي (الذراع الاقتصادي للأسرة الحاكمة)، إضافة إلى رئاسته غرفة الصناعة والتعدين. (المراجع)

- الثامن من سبتمبر: يُسمَّى «الجمعة الأسود»؛ ففيه أطلق الجيش النار على الحشود في ميدان جاله[1] (بالفارسية: ژاله)، مما تسبَّب في مقتل ما بين ألفين إلى أربعة آلاف شخص، وفقًا لما ذكرتهُ المصادر. وقد أعقَبَ ذلك إعلان الأحكام العرفيَّة في البلاد.

- من نهاية سبتمبر إلى الخامس من نوفمبر: إطلاق سراح ألف ومئتي سجين سياسي، وإضرابات، واعتصامات طلابية في جامعة طهران، وأعمال شغب، وعمليات إطلاق نار.

- الثالث من أكتوبر: استقرار آية الله الخميني في «نوفل لوشاتو» بفرنسا.

- بين الرابع والخامس من نوفمبر: سُمي «نهاية الأسبوع في طهران»، وفيه أُحرق كل ما يدل على الغرب وسلالة پهلوي.

- السادس من نوفمبر: تعيين الجنرال، ورئيس الأركان؛ «غلامرضا ازهارى»[2] رئيسًا للوزراء.

- من العاشر إلى الحادي عشر من ديسمبر (يوما تاسوعاء وعاشوراء؛ التاسع والعاشر من شهر المحرَّم): أُعلِنَ فيهما الحداد،[3] واندلعت مظاهرات ضخمة في طهران، وصارت الشعارات الدينية ذات طبيعة سياسيَّة.

- الثاني عشر من ديسمبر: شرعت وحدات الجيش في عمليات قمع متفرقة.

- بين الثلاثين والحادي والثلاثين من ديسمبر: نهاية شهر المحرم، وانتشار المظاهرات في المحافظات.

---

(١) سُمي بعد الثورة بميدان الشُهداء (بالفارسيَّة: ميدان شهدا). (المراجع)

(٢) عسكري وسياسي إيراني (١٩١٢-٢٠٠١م)؛ درس في إيران وفي الولايات المتحدة الأمريكية إبَّان الخمسينيات. ترقى في الرتب العسكرية؛ فصار رئيسًا للأركان عام ١٩٧١م، وكان رئيسًا لوزراء الحكومة العسكريَّة المؤقتة (٦ نوفمبر-٣١ ديسمبر ١٩٧٨م). أصابته نوبة قلبيَّة إبَّان اضطلاعه برياسة الوزراء؛ فاستقال، وغادر لإجراء جراحة في الولايات المتحدة الأمريكيَّة (يناير ١٩٧٩م)، ثم استقرَّ هناك ولم يعُد مرَّة أخرى إلى إيران. (المراجع)

(٣) كان تزامُن ذكرى عاشوراء -استشهاد الإمام الحسين وآله في كربلاء- مع أحداث الثورة من الموافقات الإلهيَّة؛ التي يسَّرت توظيف مشاعر الغضب المتأججة على قتلة آل البيت، وتوجيهها إلى النظام. بل قُرِن الشاه المقبور نفسه، في بعض شعارات الوقت؛ بـ«يزيد بن معاوية». (المراجع)

أحداث العام ١٩٧٩م

- السادس عشر من يناير: غادر الشاه إيران إلى المنفى، وعهد إلى «شابور بختيار»[1] بحكومة وصاية.

- الأول من فبراير: عودة آية الله الخميني إلى طهران مُظفَّرًا، برفقة «أبو الحسن بني صدر».[2]

- الخامس من فبراير: تكليف «مهدي بازرگان»[3] بتشكيل الحكومة.

- الثامن من فبراير: انضمام القوات الجوية إلى صفوف آية الله الخميني.

- أيام العاشر والحادي عشر والثاني عشر من فبراير (ثلاثة أيام مجيدة في طهران): إذ أدَّت مشاركة الجماعات الإسلاميَّة والماركسيَّة المسلحة، في الانتفاضة الشعبيَّة؛ إلى حدوث تغيير في مسارها.

- التاسع عشر من فبراير: فرار «شابور بختيار»، وتولي «مهدي بازرگان» رئاسة مجلس الوزراء، وإنشاء حزب موالٍ للخميني هو: الحزب الجمهوري الإسلامي (بالفارسيَّة: حزب جمهورى اسلامى).

- الرابع والعشرون من فبراير: إنشاء حزب الشعب الجمهوري الإسلامي (بالفارسيَّة: حزب جمهورى خلق مسلمان ايران)، وهو حزب ديني مؤيد لآية الله شريعتمداري.

---

(١) سياسي إيراني وآخر رئيس وزراء لأسرة بهلوي (١٩١٤-١٩٩١م)، وقد تمَّت تصفيته في مسكنه، بأحد ضواحي العاصمة الفرنسيَّة؛ على يد النظام الإيراني. كان أحد الوجوه المبرَّزة التي شكَّلت النسخة الرابعة من «الجبهة الوطنيَّة» في ١٩٧٧م، وقد أدى اختياره رئيسًا للوزراء في ١٩٧٨م إلى طرده من صفوف الجبهة. ورغم أن وزارته لم تستمر إلا ما يربو قليلًا على الشهر، فإن رفض الجماهير الإيرانيَّة لها كان كاسحًا. (المراجع)

(٢) سياسي واقتصادي إيراني، وأول رئيس للجمهورية الإسلاميَّة في إيران بعد إلغاء الملكيَّة (فبراير ١٩٨٠-يونيو ١٩٨١م). كان من أبرز الناشطين والقادة الطلابيين المناهضين للشاه في فرنسا. وقد رافق الإمام الخميني في الحقبة الفرنسيَّة من منفاه، وعاد معه في مطلع شهر فبراير ١٩٧٩م، حيث عينه نائبًا لوزير الاقتصاد، ثم وزيرًا للاقتصاد والمالية، ثم وزيرًا للخارجية، قبل انتخابه رئيسًا، ثم عزله بتصويت البرلمان الإيراني على عدم صلاحية رئاسته. وقد فرَّ إلى فرنسا، وما زال يعيش هناك. (المراجع)

(٣) أكاديمي ومهندس ومفكر وسياسي إيراني (١٩٠٧- ١٩٩٥م). صار أول رئيس وزراء لإيران بعد انتصار الثورة. عُرِفَ بعدائه للملكيَّة ومشاركته مصدق عمليَّة تأميم النفط، مما أدى لسجنه بعد عودة الشاه إلى الحكم. استقال من رئاسة الوزراة بعد تسعة أشهر فقط احتجاجًا على ما عُرِف بأزمة رهائن السفارة الأمريكية. وقد عُرف بازرگان بتأصيله للمكون الإسلامي في الهوية الإيرانيَّة. وهو الأب الشرعي للتقليد الذي أفرز أهم المفكرين «الإسلاميين» الحداثيين في إيران، الذين ظهروا خارج الحوزة؛ أمثال «جلال آل أحمد» و«علي شريعتي». (المراجع)

- **الأول من مارس: استقرار آية الله الخميني في مدينة قم لـ«استئناف دعوته».**

- **الثامن من مارس: مظاهرات قادتها نساء[1] في طهران، احتجاجًا على «كل أشكال الديكتاتورية».**

- **نهاية مارس: احتجاج بازرگان، في التلفاز الإيراني؛ على إعدام المعارضين من قبل جماعات شبه عسكرية نسبت نفسها للخميني.**

- **بين الثلاثين والحادي والثلاثين من مارس: تبني الجمهورية الإسلامية في استفتاء عام.**

***

طهران...[2] ارتجّت الأرض في زلزال قوي، ضرب أقصى حدود صحراء الملح[3] الشاسعة، الممتدَّة إلى وسط إيران؛ وانتهى بتدمير مدينة طبس وأربعين قرية بالكامل.

وقبل عشر سنوات من هذا التاريخ؛ زالت مدينة فردوس، التي تقع في المنطقة نفسها؛ من الوجود تمامًا، قبل أن تنمو على الأرض، التي دمَّرها الزلزال؛ مدينتان مُتنافِستان. ويبدو أن الكارثة التي تكرَّرت اليوم لا يمكن أن تُسفِر في إيران الشاه عن انبعاثٍ واحدٍ ومتشابِه. فقد شُيِّدت حينها المدينة الإدارية، التي تضمُّ إحدى الوزارات، ويسكنها الأعيان والوجهاء؛ وغير بعيدٍ عنها بنى الحرفيون والفلاحون مدينتهم الخاصة، خارج أي تخطيطٍ رسمي للدولة، بل بإشراف عالم دين؛ حيث جمعوا الأموال وحفروا وبنوا، ومدُّوا القنوات والآبار، وشيَّدوا مسجدًا؛ ثم رفعوا في اليوم الأول علمًا أخضر اللون. وقد سُميت القرية الجديدة إسلامية (بالفارسيَّة: اسلاميه)؛ وهو ما يعني أن الإسلام قد وقف في مواجهة الحكومة وضدَّها قبل عشر سنوات خلت.

---

(١) راجع ما ذكره «حامد الگار»، عن هذه التظاهُرات؛ في كتابه: «جذور الثورة الإسلاميَّة في إيران»، الذي ترجمه إلى العربيَّة مراجع هذا الكتاب، ونشره مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت. (المراجع)

(٢) لا يعني استعمال لفظة «طهران»، في بداية كل مقال؛ أنه كُتب في طهران. إذ إن سلسلة المقالات التي حرَّرها فوكو قد كُتِبَت دفعة واحدة عند عودته إلى باريس.

(٣) تجمع بين صحراءين: كافير ولوط (بالفارسية: دشت كوير و دشت لوت). (المراجع)

فمن ذا سيُعيد بناء طبس اليوم؟ ومن يُعيد بناء إيران بعد أن زُلزِلَت أرض طهران تحت جنازير الدبابات في جمعة الثامن من سبتمبر؟[1] ربما لم يسقُط فعلًا هذا البناء السياسي الهش بالكامل، لكنَّه مُتصدِّعٌ من أعلاه إلى أدناه بحيث غدا من غير الممكن إصلاحه.

كان الناجون في طبس يُعانون بمفردهم لإزالة الأنقاض، في قيظٍ شديد، تحت ظلال النخيل الصامد وحيدًا بعد الزلزال. هناك كانت أيدي الموتى ما تزال ممدودةً لأعلى، تحاوِلُ صدَّ الجدران التي لم تعُد موجودة؛ ورجالٌ يُلقونَ باللعنات على الشاه وهم ينظرون إلى الأرض. لذلك، حين زارت الشهبانو المكان مع وصول الجرَّافات؛ لم تلقَ منهم أي ترحاب. في الوقت نفسه، كان الملَّالي[2] قد توافدوا من جميع أنحاء المنطقة، وانطلق شباب طهران، في تكتُّم؛ يطوفون بمنازل الموالين لجمع الأموال، قبل المغادرة إلى طبس. كانوا يقولون للناس: «أعينوا إخوانكم، لكن لا تُشركوا الحكومة، ولا تمنحوها شيئًا»؛ وهي الدعوة التي أطلقها آية الله الخميني من منفاه بالعراق.[3]

إنَّ الأرض التي ترتجُّ بفعل زلزال، وتدمر كل شيء؛ تستطيع توحيد الناس. إذ بفضلها تتفرَّق السياسات، ويتكشَّف الخصوم والأعداء أكثر من ذي قبل. لقد ظنَّ النظام أن بوسعه استعمال الكارثة الطبيعيَّة مسوِّغًا ليُحوِّل مسار الغضب العارم، الذي ربما ألجمتهُ المذابح التي ارتُكِبَتْ يوم الجمعة الأسود، دون أن تجرِّدهُ من بأسه؛ لكنَّهُ لم يفلح، لأن ضحايا زلزال طبس سيتمدَّدون إلى جانب القتلى الذين

---

(١) وقعت مذبحة ميدان «جاله» في ذلك اليوم، ويسمى بـ«الجمعة الأسود»؛ ثم وقع زلزال طبس بعد ذلك بأيام.

(٢) يستعمل فوكو مصطلحين للإحالة إلى علماء الشيعة؛ فتارَّة يسميهم «الملالي» وتارة هم: «رجال الدين». ويبدو عندي أن الفارق في استعمال فوكو وثيق الصلة بمقولات تصنيفية بالأساس، بقطع النظر عن المدلول الأصلي؛ فالملالي عنده هم علماء الشيعة الذين يمارسون الدعوة ويقتربون من المجتمع، يتنقلون بين القرى والمدن الصغيرة، ويتحلَّق حولهم الناس في المساجد والمقابر. أما رجال الدين فهم الأقرب إلى البنية المؤسسيَّة؛ أي الذين ينتظمون في ما يمكن اعتباره -مجازًا- المؤسسة الدينية الرسمية للشيعة، وتشمل آيات الله المؤثرين، الذين كانوا قادة الرأي الحوزوي في السياسة. وقد فضلنا الاحتفاظ بمصطلحات فوكو، دون تدخل منا؛ للإبقاء على هذا التمييز المفاهيمي. (المترجم)

(٣) ولم يكن آية الله الخميني، المنفي خارج إيران منذ العام ١٩٦٣م؛ معروفًا في الغرب حتى ذلك الوقت.

سقطوا في ميدان جاله، ويحتجون لأجلهم. لقد تساءلت إحدى النسوة أمام الملأ؛ قائلة: «ثلاثةُ أيام من الحداد الوطني على ضحايا الزلزال أمر مقبول؛ فهل يعني ذلك أن الدم الذي تدفَّق في طهران لم يكن إيرانيًّا هو الآخر حتى يُعلَن عليه الحداد؟».

وفي فنادق طهران، كان الصحافيون العائدون، ليلة أمس؛ من طبس قد اعترتهم الدهشة والارتباك. إذ لاحظوا حتمًا أن الجنود غير المبالين تركوا الرجال والنساء يحفرون الأرض بأيديهم، لانتشال موتاهم. هل تُراهم تلقوا الأمر بذلك؟ أم هو انعدامٌ للكفاءة؟ أم نيَّة سيئة متعمَّدة؟ هذا لغز يُحيطُ بالجيوش في كل مكان.

ففي يوم الاثنين الرابع من سبتمبر، كانت الحشود تُلقي بالورود على الجنود، حيث تآخوا معًا وانتحبوا سويًّا. ثم في يوم الخميس السابع من الشهر ذاته؛ اندلعت المظاهرة الضخمة في شوارع طهران، تفصلها بضع بوصات عن المدافع الرشاشة المصوَّبة، لكن دون إطلاقٍ للنار. وفي جمعة الثامن من سبتمبر؛ بدأ إطلاق الرصاص من البنادق الرشاشة، وربما استُعمِلَت قذائف البازوكا، واستمر القتل إلى نهاية اليوم. بل استعملت القوات النيران ببرودة مُمنهجة -في بعض الأحيان- كأنها كتائب إعدامٍ رسميَّة.

يوصف قتل المسلم للمسلم -لدى الشيعة- بأنه أحد المنكرات الشرعيَّة، وذلك منذ صدر الإسلام، بل ومنذ اغتيال الإمام علي (عليه السلام) والله أعلم. لكنَّهُ أيضًا منكر ذو طبيعة سياسيَّة وقانونية.

لذا كانت أكثر الحجج المستعملة، للخروج من هذا المأزق؛ هي تبني أسطورة تذهب إلى أن «الذين أطلقوا النار علينا ليسوا مِنَّا؛ كانت شعورهم طويلة، ويتكلَّمون بلسان أجنبي. لقد جُلِبوا في طائرات شحن قبل يوم من إسرائيل».[1] وقد طَرَحتُ هذا السؤال -مُستفسرًا- على مُعارضٍ يعرف بفضل موقعه ما يحدث داخل الجيش؛ فأجابني قائلًا: «نعم، ثمة تعاون فني مع الجيش الإسرائيلي. وقد

---

(١) رغم توثُّق التعاون العسكري بين إيران وإسرائيل منذ الستينيات؛ فإن الأمر هنا يبدو كما لو كانت شائعة تهدف للترويج إلى أن الشاه لا يملك جيشًا يستطيع الاعتماد عليه.

استعانت القوات المناهضة للثورة في البداية بمستشارين إسرائيليين، فعلًا؛ لكن لا شيء على الإطلاق يدعونا للقول بأن قتلانا في طهران قد لاقوا حتفهم بأيدي أجنبيَّة».

هل باتت السلطة الحقيقيَّة بيد الجيش في هذه اللحظة؟ إذ الجيش هو الذي يعمل الآن على صدِّ التمرُّد الضخم، الذي يقوده الشعب ضد الشاه؛ بعد أنْ تخلَّى عنه الجميع، حتى المقرَّبون من أصحاب الحظوة. فهل الجيش هو الذي سيتخذ القرار، في الأسابيع المقبِلَة؛ مثلما يتوقَّع العديد من المراقبين الغربيين؟

لا يبدو الأمر كذلك. ربما تملك إيران خامس أقوى جيش في العالم، كما يُقال؛ إذ تُنفِقُ واحدًا من كل ثلاثة دولارات، من عائدات البلد النفطية؛ على هذه «اللعبة» الباهظة. لكنَّ الواقع أن الإنفاق العسكري، والمعدَّات، والطائرات النفاثة، والحوامات، لا تصنع جيشًا؛ بل قد يُعيق التسلُّح إنشاءَ جيشٍ ما.

بادئ ذي بدء، لا تملِكُ إيران جيشًا واحدًا فقط؛ بل أربعة جيوش هي:

- الجيش التقليدي المكلَّف بمهام المراقبة والإدارة في جميع أنحاء الإقليم؛

- الحرس البريتوري/ الإمبراطوري، الذي يحمي النظام. وهو هيئة مغلقة من الجنود الموالين، وله طرقه الخاصة في التجنيد، ومدارسه، وأحياؤه السكنية، التي أنشأت بعضَها شركةٌ فرنسية؛

- الجيش المقاتِل مع أسلحة أكثر تطورًا من تلك المتاحة للجيش الأمريكي نفسه، في بعض الأحيان؛

- ثم ثلاثون أو أربعون ألفًا من المستشارين الأمريكيين.

وبالإضافة إلى ذلك، تحاشىَ الشاه إنشاءَ أيِّ بنيةٍ قد تُشبِهُ قيادةً حقيقية للأركان، لذا؛ فكل الوحدات الكبرى، في هذه الجيوش؛ تتبعُه مباشرة، ويتحكَّم فيها جهاز شرطة داخلي. كما لا يمكن لأي ضابط كبير الحركة دون إذنٍ شخصيٍّ من الشاه. قال لي أحد هؤلاء: «انتقد أحد زملائي الشاه، لأنه أسبغ على نفسه رتبة جنرال

في الجيش الإنكليزي، ولأنه يرى أن الجيش الذي يلهو به يُشعِرهُ هذه المرة بأنه يعيش عصره الڤيكتوري. أما زميلي، الذي أيّد الشاه ضد مصدق؛ فقد ألفى نفسه في السجن لثلاث سنوات».

يتعايش النفط والبؤس في إيران، وفيها يحتل الجيش مكانًا مهمًّا جدًا؛ إذ يَعتاشُ منه أربعة ملايين شخص (واحد من كل ستَّة إيرانيين) وفقًا لخبراء الاقتصاد. لكن ذلك لا يكفي لمنحه قاعدة اجتماعية متماسكة، أو حتى ضمان مشاركته في التنمية الاقتصادية للبلاد؛ فمعظم الأسلحة تُستورَدُ من الخارج. وثمة عائدات اقتصاديَّة متأتيَّة منه بطبيعة الحال، وهي بالنسبة للجنرالات تتمثَّل في العمولاتِ التي يحصلون عليها من الصفقات، أما في حالة البسطاء من الناس؛ فهي قوَّةُ العمل الصغيرة، التي يتم تجنيدها بأعداد كبيرة من العاطلين عن العمل. وبذلك لا تملِكُ إيران أيَّة بنيةٍ اقتصادية-عسكرية صلبة.

كما أنه ليس للجيش عقيدة قتاليَّة خاصة به. ففي تاريخ إيران، لم يتمكَّن الجيش يومًا من الاضطلاع بدورٍ في قيادة الوطن، أو في تشكيل مشروع سياسي؛ كالذي نجده لدى جيوش أمريكا الجنوبية في حروب الاستقلال. فالجيش الإيراني لم يُحرِّر شيئًا، بل خدم مصالح الروس، ثم الإنكليز، ثم الأمريكيين. وحمى سادَتَهُ وعَمِلَ كحارس، إلى جانب حراس أجانبَ؛ على أراضي يملكها أصحاب الامتيازات. ولم تُتَحْ له الفرصة يومًا ليُعبِّر عن مصالح إيران، أو ليتولَّى رسم مستقبل البلاد. وفيما مضى، تمكَّن أحد الجنرالات من الاستيلاء على السلطة، لكنَّ ذلك الجنرال لم يكن سوى «رضا خان»؛ والد الملك الحالي، الذي كان يقود لواء القوزاق؛[1] قبل أن يشجعه الإنكليز على تولي الحكم.

---

(١) لواء عسكري أنشأه القاجار، عام ١٨٧٩م؛ على منوال ألوية الجيش الروسي. وتعني لفظة «قوزاق» بالتركية: الإنسان الحر، لكنِ اللواء الإيراني عُرِفَ عنه ولاؤه لروسيا. وقد انتقدت الحكومة الإيرانية ومجلسها، عام ١٩٠٧م؛ هذا الوضع، وتوقَّفت عن تمويل اللواء، الذي كان آخر قادته هو «رضا خان»؛ شاه إيران اللاحق ومؤسس الملكية البهلويَّة، التي أزاحت حكم القاجار عام ١٩٢١م، وألغته رسميًّا في عام ١٩٢٥م. وقد أدمج اللواء لاحقًا في الجيش الإيراني. (المترجم)

يمكن لهذا أن يتكرر بالطبع؛ إذ يمكن للسفير الأمريكي أن يُكرِّر نموذج انقلاب «أيرونسايد»،[1] الذي سمح لرضا خان بإزاحة القاجار؛[2] أو على الأقل أن يَفرِضَ على الشاه أحد الجنرالات الأقوياء في منصب رئيس الوزراء. لكنَّ هذا الخيار سيكون مجرَّد حلٍّ مؤقَّتٍ للغاية، إذ لن يشكِّلَ ذلك دكتاتوريةً عسكريَّة تقودها زمرة من الضباطِ، الذين يظلون مُتضامنين رغم منافساتهم الشخصية. لذا يبدو أن الصيغ الشبيهة بنموذج بينوشيه أو «خورخي ڤيديلا»[3] ستظل مستبعَدة بفضل السماء... أو لنقل: بفضل الله.

لقد أعدم الشاه أربعة وعشرين ضابطًا إيرانيًّا بتهمة الانتماء الشيوعي ذات يوم، ثم وضع إكليلًا أسفل تمثال لينين في اليوم التالي. أما ضحايا حمام الدم هؤلاء؛ فلم يتم تعويضهم بآخرين.

وتتغذَّى نزعة مناهضة الماركسية داخل الجيش من مصدرين اثنين؛ فعند المنتمين إلى المعارضة تبرِّرُها سياسةُ الاتحاد السوڤييتي ودعمُهُ، الضمني على الأقل؛ لسياسة الشاه منذ سقوط مصدق. إذ يتطلَّب الأمر هذه الأيام الكثير من الشجاعة البدنيَّة والفكريَّة والأخلاقيَّة، ليجمع المرء بين كونه معارضًا قوميًّا، وفي الوقت نفسه ماركسيًّا على الطريقة السوڤييتية؛ إذ تُمثِّل مناهضة الماركسية ضمانة لهؤلاء ليُصنَّفوا بوصفهم قوميين. أما بالنسبة لعامة الناس؛ فهُم ببساطة أسرى الدعاية التي تمارسها الحكومة في هذا السياق. وقد أُطْلِعْتُ على منشورات توزَّع داخل الجيش؛ مضمونها أنه لا يجدر قتل النساء أو الأطفال بحال، باستثناء ما إذا كانوا شيوعيين.

---

(١) نسبة إلى الفيلد مارشال البريطاني «وليم إدموند أيرونسايد»، الذي أنهى الوجود الروسي في إيران بعد الحرب العالمية الأولى، وأفسح الطريق لـ«رضا خان» للانقلاب على القاجار، وكان أحد مستشاريه. (المراجع)

(٢) القاجار هي أسرة تركمانيَّة من عشائر القزلباش، التي شكَّلت الظهير الاجتماعي والديني للصفويين؛ وقد وصلت إلى الحكم في إيران عام ١٧٨٩م، بعد فترة اضطرابات طويلة أعقبت سقوط الدولة الصفويَّة، وتخللها حكم نادر شاه أفشار (رأس عشيرة أخرى من عشائر القزلباش). (المراجع)

(٣) قائد عسكري ودكتاتور الأرجنتين من عام ١٩٧٦ وحتى ١٩٨١م. (المترجم)

وإذا كان الجيش عدوًّا لدودًا للماركسية؛ أفلا يؤدي هذا إلى تدخُّله بشكلٍ واسع في شؤون البلاد إذا ما اضطربت الأمور، وأوحت الحكومة بأن «الشيوعيَّة الدوليَّة» هي المسئولة عن إثارة تلك الاضطرابات؟

في هذا دَبَّرَ لي بعض الأصدقاء لقاءً مع بعض كبار الضباط، وجميعُهم ينتمون للمعارضة. وقد تم ذلك في مكان شديد التأمين من ضواحي طهران.

وقد أخبرني هؤلاء الضباط المعارِضون أنه كلما تفاقَمَت المشكلات اضطرت الحكومة، حفظًا للنظام؛ إلى استدعاء المزيد من الجنود غير المستعدين وغير المدرَّبين. ليكتشف الجنود حينها أنهم لا يواجهون الشيوعية الدولية؛ بل يواجهون الشارع، وأصحاب المتاجر، والموظفين، والعاطلين عن العمل كحال إخوانهم، أو كحالهم هم أنفسهم لو لم يكونوا جنودًا. وهؤلاء «يمكن أن تُفلِحُ في حملهم على إطلاق النار على الحشود لمرَّةٍ واحدةٍ، ولكن ليس لمرتين. ولهذا السبب كان لا بد من تغيير الحامية بأكملها في تبريز قبل ثمانية أشهر. ورغم الاستعانة بفيالِقَ استُقْدِمَت من أقاصي حدود المحافظة في طهران؛ فإنه قد يتعيَّن تغييرها بسرعة». وفي هذا أكد لي مصدري أن ضابطًا واحدًا على الأقل قُتِلَ على يد جنوده، خلال يوم الجمعة الأسود؛ عندما أصدر الأمر بإطلاق النار على الحشود، وأنَّ جنودًا انتحروا بإطلاق النار على أنفسهم في اليوم التالي.

ومع تنامي الاضطرابات، واستعمالها لشعارات تحيل إلى الإسلام، الذي ينتمي إليه الجيش برمته؛ يكتشف الجنود والضباط أنهم لا يواجهون أعداءً، بل سادةً لهم يجثمون على صدورهم. وحين يكتشف الجيش، ساعة القتال؛ أنه يواجه سادته لا أعداءه، فما عساه إذ ذاك أن يفعل؟

- ألن يخرج من صفوفه حينها قائد يشبه «جمال عبد الناصر» أو القذافي؟

تردَّد الضابط لثانية؛ ثم أجابني: «إذا كان هذا القذافي وطنيًّا، ويحترم القانون، والديمقراطية، والدين؛ فسأقبله، وأعتقد أننا جميعًا سنقبله».

- نعم، بالطبع؛ سيعمل على احترام كل ذلك لحظة وصوله إلى السلطة، لكن ماذا عن التطورات التي ستحصُل لاحقًا حين يستَتِبُّ له الأمر؟

- ربما تحقَّقت له الشعبية؛ لكنه سيفقِدُها في اللحظة التي يتحوَّل فيها إلى ديكتاتور.

وأضاف: «تذكَّر ألَّا شيء في الجيش يمكن أن يجعله ذا شعبية. فربما يَقبَل بزعيم ديمقراطي يخرج من الجيش، لكن ليس بدكتاتوريَّةٍ تنبعُ منه».

وتذكَّرتُ ما أخبرني به الكثيرون؛ أنَّ القوة المفرِطة للجيش الإيراني لا يمكن تبريرُها بالضروريات الوطنية. وأنه يكفي ثماني دقائق فقط ليُدمِّرها هجوم سوفييتي. ومن ثم، فإن عمل الجيش الوحيد، وفق هذه الفرضية؛ لا يتعدَّى تطبيق سياسة الأرض المحروقة، أي تدمير البلاد. وأن مثل هذه القوَّة غير المتجانِسة لا علَّة لوجودها إلا ضمان النظام الداخلي، أو أداء وظيفة الشرطي على النطاق الإقليمي. وأحدث جولات هذه القوَّة العسكريَّة -في الاضطلاع بدور الشرطي- تمَّت في أفغانستان، قبل الانقلاب الذي وقع هناك بوقت قصير. وهي في حالٍ تُمكِّنها من حمل تَبِعة ساحة المعركة بأكملها في الشرق الأوسط، علاوة على كونها قوَّة تَدَخُّل إقليمية في أنحاء جنوب غرب آسيا. باختصار، هي قوات أشد هشاشة وانقسامًا على نفسها من أنْ تَفرِضَ نظامًا مواليًا للأمريكان في إيران، سواء كان ذلك في وجود الشاه أو من دونه؛ بل إنه من الواضح أنها تعمل كذلك كقوات شرطة انقلبت ضد جيرانها المسلمين، لتضمن موافقة واسعة على «إحياء» أمجادها القوميَّة. إن هذه القوات هي قوات مجهَّزة بالأسلحة الأمريكية، لا جيشًا أمريكي الطابع.

ثم سألتُ، أحد ممثلي الجيش هؤلاء؛ عن أكبر خطرٍ قد تواجهه إيران في رأيه: هل هي الولايات المتحدة أم الاتحاد السوفييتي؟ فأجابني هذه المرة بلا تردُّد: «إنها الولايات المتحدة، لأن الأمريكيين هم من يُهيمنون علينا».

وبدت لي هذه الكلمات ذات وزن، لأني كنت أعرف أن مُحاوري ليس من الرافضين بحال للدور الذي لَعِبَهُ الأمريكيون، حين أعادوا الشاه إلى عرشه قبل خمسة وعشرين عامًا.

يبدو إذن أن الجيش في حد ذاته لا يملك أيَّ قوة تدخُّلٍ سياسي. وقد لا يستطيع الشاه الاستغناء عنه، وهذا حقيقي؛ لكنَّهُ جيشٌ مقيَّدُ الحركة، أو بالأحرى تخترقه قوى تُهدِّدُ الشاه ذاته.

ومن ثمَّ، فيمكن للجيش السماح بالحل، أو الحيلولة دونه؛ لكنَّهُ غير قادر على اقتراح حلٍّ من عنده، أو فرضه. وهو ما يعني أنه أشبه بالقفل، بدلًا من كونه مفتاحًا. وأحدُ المفتاحين، اللذين يُفترَضُ أنهما يفتحان هذا القفل؛ ليس أمريكيًّا مُتعلِّقًا بوضع الشاه، بل هو مفتاح إسلامي تمثله الحركة الشعبية، وهو الذي يبدو أكثر ملاءمة في الوقت الراهن.

الشاه مُتأخِّرًا عن زمنه بمئة عام[١]

طهران.[٢] حين غادرتُ پاريس قيل لي الكلام نفسه، وبصياغات متعددة:

«تجتاز إيران أزمة تحديثية.[٣] إذ يحكمها ملكٌ متعجرفٌ، أرعنُ ومستبِد، لكنه يحاول منافسة الدول الصناعية، ويُبقي عينيه ثابتتين ترنُوان باتجاه العام «٢٠٠٠م»؛ أما المجتمع التقليدي، فلا يمكنه ولا يريد أن يتَّبِعهُ. ولأنه مجتمع يشعر بالإهانة؛ فقد تجنَّد واحتشد ضده، إذ يفضِّل العودة إلى ماضيه باسم معتقدات تعود لألف سنةٍ خَلَت، باحثًا عن ملاذٍ آخر لدى رجال دين رجعيين».

(1) October 1, 1978: «Le chah a cent ans de retard». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 679-683.

(٢) تحمِلُ ميشيل فوكو هذه المقالة عنوان: «الثِقَل المعَطِّل للتحديث». وقد تُرجِمت إلى اللغة الفارسية، ونشرها الطلاب على جدران جامعة طهران حين أُعيد افتتاحها في نهاية أكتوبر [١٩٧٨م].

(٣) كانت نظرية التحديث مركزية لفترة في الأكاديميا الغربية، لاسيما في العلوم السياسية وعلم الاجتماع. وترتكز على افتراض انتقال المجتمعات التقليدية إلى عالم الحداثة، حيث تتطور الثقافة السياسيَّة، وتختفي البنى القديمة؛ لتفسح المجال لأخرى جديدة. كل ذلك يواكبه تقدُّم في حركة التصنيع والتنمية الحضريَّة، وتوسُّع في التعليم واتساع لنطاق الهيمنة البيروقراطيَّة. وقد انتشرت النظرية -ذات الأصول الأمريكيَّة- بشكل كاسح خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين. أما النقد الموجه لها، فقد بدأ من أواخر الستينيات إلى أواخر السبعينيات، وخلاصته أن الجهود التحديثية لا يمكن أن تُسفِر عن أنظمة ديمقراطية ومستقرة؛ بل ستعُمُّها الاضطرابات وتصير عُرضة للتغيرات المتسارعة، إذ ترفض البنى التقليدية التغيير الذي تفرضه حركة التحديث الصناعي والبيروقراطي، وهي في الغالب من ذات طابع ديني وريفي؛ لذلك توصف بالرجعية ورفض التقدُّم والانكفاء على الماضي. وللاستزادة؛ يمكن الرجوع إلى كتاب صمويل هنتنغتون التالي، فهو عمدة في هذا الباب؛ (المترجم):

- Samuel Huntington, *Political Order in Changing Societies* (New Haven: Yale University Press), 1968.

وسمعتُ، في مناسبات لا تُحصى؛ محلِّلينَ مهتمين يتساءلون بجديَّة عن أكثر الأشكال السياسية، التي يمكنها التوفيق بين جذور المجتمع الإيراني، وضرورة خضوعه للتحديث؛ أهي الملكية الليبراليَّة، أم النظام البرلماني، أم نظام رئاسي صلب؟

ثم وصلتُ إلى طهران، وكلُّ هذه الأسئلة تجول في ذهني. وقد طرحتها عشرين مرة، وحصلتُ على عشرين إجابة؛ وهذا نموذج لبعضِها: «يبقى الملك على العرش، لكنَّه لن يحكم»، و«لا بد من العودة إلى دستور عام ١٩٠٦م»، و«لِتكُن فترة انتقالية تدوم لبعض الوقت، قبل اتخاذ القرارات النهائية»، و«يجب أن يتوارى الشاه عن الأنظار تمامًا، أو جزئيًّا»، و«على آل پهلوي أن يغادروا البلاد، وألا يَرِدَ ذِكرُهُم مرة أخرى». لكن في كل هذه الإجابات، هيمنت دائمًا فكرة ضمنيَّة واحدة: «نحن لا نريد هذا النظام». وفي هذه الحال؛ لم أجد في أيٍّ من هذه الإجابات عونًا يُذكَر.

ثم تسنَّى لي بعدها لقاء معارضٍ، قيل لي إنه أحد أهم رجال السياسة في البلاد. قابلتُهُ في غرفة واسعة، فارغة إلا من الستائر المسدَلة، التي لا تسمح بمرور شيء من الضوء؛ ما خلا ضجيج السيارات الذي يصعُب حجبه. كان اسم الرجل على قوائم المعارِضين المطلوبين أمنيًّا، لكنه بدا شديد الهدوء، مُتحفِّظًا للغاية، ولا يصدُر عنه سوى القليل من الإيماءات. لذلك، حين بسطَ راحتيه، وبدت فيهما ندوبٌ عريضة؛ أدركتُ سريعًا أنه سبق له التعاطي مع أساليب الشرطة.

سألتُه: «لمَ تخوضون هذا النضال؟».

- لإسقاط الاستبداد والفساد.

- هل تسعون للقضاء على الاستبداد أولًا أم الفساد؟

- الاستبداد هو الذي يحافظ على الفساد، والفساد يدعم الاستبداد.

- ما رأيكم في الفكرة، التي غالبًا ما يتداولها ويُصِرُّ عليها محيط الشاه؛ ومضمونها أن تحديث بلدٍ مُتخلِّفٍ يحتاج سلطة قوية؟ وأن التحديث لا يمكنه تلافي الفساد، في بلدٍ ما زال يُعاني من سوء الإدارة؟

- ما نرفضه على وجه التحديد هو هذه التوليفة، التي تربط بين التحديث والاستبداد والفساد.

- أهذا هو ما تدعونه في النهاية بـ«هذا النظام»؟

- بالضبط.

وفجأة تذكَّرتُ ملاحظة صغيرة، لفتت انتباهي في اليوم السابق حين زُرْتُ البازار، الذي كان قد فتح أبوابه لتوه بعد أكثر من ثمانية أيام من الإضراب؛ فقد اصطفَّت على جوانِب المتاجِر عشراتٌ من آلاتِ خياطةٍ عجيبة المنظر. كانت الآلات تبدو حديثة، لكنها مشوَّهة التركيب؛ شبيهة بتلك التي يمكن أن تُرى في إعلانات الصحف إبَّان القرن التاسع عشر. كانت مُزيَّنة برسومات على شكل نبات اللبلاب، ونباتات متسلِّقة، وزهور وبراعم؛ في تقليدٍ فجٍّ يُحاكي المنمنمات الفارسية القديمة. كل هذه الآلات، الغربية الطابع والمعطلة؛ كانت موسومة بعلاماتٍ تدُلُّ على مظهرٍ شرقي عتيق، لكنها كانت كلها تحمل شعار: «صُنع في كوريا الجنوبية».

ثم تبدَّى لي حينها أني قد أدركتُ أخيرًا أن الأحداث التي وقعت قبل فترة، لا تعني أن ثمة رجعيَّة تَسِمُ جماعاتٍ شديدة التخلُّف تقف في وجه تحديثٍ شديدِ الوحشية؛ بل هو رفضُ ثقافة، بكامل عناصرها؛ وشعبٌ، عن بكرة أبيه؛ لنمط من التحديث هو في حد ذاته يشكو من القِدَم.

أما مصيبة الشاه فهي أنه تماهى مع هذا القِدَم، وجُرْمُهُ هو الإبقاء -مُستخدمًا الفساد والاستبداد- على هذا الجزء من الماضي داخل حاضرٍ باتَ يلفظُهُ.

نعم، إن التحديث في إيران، بوصفه مشروعًا سياسيًّا ومبدأً للتحول الاجتماعي؛ هو شيء قديم ينتمي إلى الماضي.

ولا أعني بذلك القول إن الأخطاء والإخفاقات قد كشفت عن الفشل الذي مُنيَت به الأشكال الحديثة، التي أسبغها الشاه على هذا الماضي فحسب؛ بل أقصد أن جميع المبادرات الكبرى، التي اتخذتها السلطة منذ عام ١٩٦٣م؛[1] صارت الآن مرفوضة من جميع الطبقات الاجتماعية. فمُلَّاكُ الأراضي، بل وكذلك صغار الفلاحين؛ يتذمَّرون من الإصلاح بسبب الديون التي أثقلت كواهلهم، بمجرد حصولهم على قطع الأراضي؛ فاضطرتْهم للهجرة إلى المدن. كذلك يتذمَّر صغار الحرفيين والصناعيين، لأن بناء السوق الداخلية لم تُفِد منه سوى المنتجات الأجنبية بشكل رئيس. وليس تجَّارُ البازار براضين، نتيجة الأشكال الحالية من التوسُّع الحضري الذي يخنقهم. ولم يتبقَّ أمام الطبقة الغنية اليوم سوى احتذاء طبقة الحكام، وإيداع رؤوس أموالها في بنوك كاليفورنيا، أو شراء العقارات الپاريسية؛ بعد أنْ كانت تُعَوِّلُ على التنمية الصناعية الوطنية.

ولئن كان «التحديث» المرفوض اليوم هو هذه السلسلة من الإخفاقات المريعة، إلا أنه كامِنٌ أيضًا في شيءٍ أشد قِدَمًا؛ فكأنه مُلتَصِقٌ بجلد الملك الحالي، وعِلَّة وجوده نفسها. إنه شيء لا يتعلَّق بعمل حكومته ونظامه فحسب، بل بمملكته بأسرها.

ففي عام ١٩٢١م، دفع الإنكليز رضا خان إلى السلطة، حين كان قائدًا لفيلق القوزاق، وحينها؛ قدَّم الرجل نفسه كمُقَلِّدٍ إيراني لنموذج أتاتورك في تركيا. كان وصوله للعرش اغتصابًا بلا ريب، لكن سِيْقَ لذلك ثلاثة أهداف، استعارها كلَّها

---

(١) استهدفت هذه المبادرات، التي توصف بأنها تحديثيَّة أو إصلاحيَّة؛ إحداث تغيير في العمق الإيراني، وتقويض مكانة الإسلام في المجتمع؛ وهو ما أثار حفيظة المؤسسة الدينية، التي اعتبرته تغريبًا. وقد أفضت هذه المبادرات إلى نمو المعارضة، التي استفحلت ضد حكم الشاه لاحقًا. واشتملت هذه المبادرات على مجموعة من الإجراءات السياسيَّة والإداريَّة والثقافيَّة، وكانت خلاصتها هي ما سُمي بمشروع «الثورة البيضاء»، الذي ارتكز على ستة مبادئ: إعادة توزيع الأراضي، وتأميم الغابات، وبيع المصانع الحكومية للقطاع الخاص، وحصول الدولة على نسبة من أرباح المصانع، ومنح المرأة حق التصويت، وثورة ثقافية لمحو الأمية. (المترجم)

من «مصطفى كمال»؛ وهي: القومية والعلمانية والتحديث. غير أن أسرة پهلوي لم تتمكَّن -على الإطلاق- من إحراز تقدُّمٍ في تحقيق الهدفين الأول والثاني. ففي اضطلاعها بتحقيق السيادة القومية؛ عجزت عن تخفيف القيود، التي فرضتها الجغرافيا السياسية والثروة البترولية؛ إذ سمح الأب بالهيمنة الإنكليزيَّة لدرء الخطر الروسي، واستبدل الابن الوجودَ الإنكليزي، والتغلغل السوڤييتي؛ بالسيطرة السياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة الأمريكية. كذا كان تطبيق العلمانية من الصعوبة بمكان؛ فالتديُّن الشيعي هو المبدأُ الحقيقيُّ للضمير القومي، في واقع الأمر. ومحاولةً منه لتحييده؛ سعى رضا شاه لينفخ الحياة في «الهوية الإيرانية»، التي كانت دعامتُها الوحيدة هي أسطورة السلالة الآريَّة؛ التي تعرَّضَت للاضطهاد في كل مكان. أما اكتشاف الشعب -ذات يوم- أنه يتحدَّر من سلالة آرية؛ فلم يكن يعني سوى تخليد الملكيَّة، التي عمَّرَت ألفي عام؛ على أطلال الحضارة الفارسية [القديمة] في تخت جمشيد أو «پرسيپوليس Persépolis».[1]

إذن، وفي هذا المشروع الكمالي، من قمَّة رأسه حتى أخمص قدميه؛ لم تَدَع رهاناتُ السياسة الدوليَّة والقوى الداخلية منه شيئًا لآل پهلوي سوى عظمة التحديث. وهذا التحديث هو ما بات مرفوضًا بعمق، ليس بسبب الانتكاسات التي عانى منها فحسب؛ بل بسبب المنطَلَق عينه والمبدأ الذي يستند إليه. فنحن نشهد، مع لحظات الاحتضار التي يمرُّ بها النظام الإيراني اليوم؛ اللحظاتِ الراهِنة من مشهدٍ عام بدأ منذ ما يقرُب من ستين عامًا، أي محاولة تحديث الدول الإسلامية على الطريقة الأوروبية. هذا التحديث، الذي لا يزال الشاه يتشبَّثُ به، كعِلَّةٍ وحيدةٍ لوجوده؛ لستُ أدري حقيقة ما إن كان ما يحدوه إليه هو التطلُّع إلى العام ٢٠٠٠م، لكني أدرك أن رؤيته الشهيرة تلك إنما تعود إلى عشرينيات القرن العشرين.

(١) في عام ١٩٦٧م توّج «محمد رضا» نفسه شاهنشاه (ملك الملوك) في احتفالات دعا إليها ملوك ورؤساء العالم، وأنفق عليها أموالًا طائلة. وفي عام ١٩٧١م أقام احتفالات ضخمة، أسطوريَّة البذخ؛ احتفاء بمرور ألفين وخمسمئة عام على الملكيَّة في إيران، في محاولة منه لبناء هويَّة إيرانيَّة قومية. (المترجم)

ويوجد في إيران طبقة ممن يسمونهم في أوروبا بـ«التكنوقراط الإصلاحيين»، وهؤلاء مهمتهم تصحيحُ أخطاء غيرهم من تكنوقراط الجيل السابق. يتحدَّث هؤلاء عن النمو الذي يجب أن يخضع للتخطيط، وعن التنمية التي تأخذ البيئة بعين الاعتبار؛ كما يتحدَّثون أيضًا عن احترام «النسيج الاجتماعي». وقد بيَّن لي أحدهم كيف أنه يمكن إصلاح كل شيء، وأن التحديث سيتم «بصورةٍ معقولة»، تحترم «الهويَّة الثقافية»؛ لكن ذلك لن يحدث إلا إذا تخلَّى الملك عن أحلامه. ثم استدار ليُريني صورة ضخمة، معلَّقةً على الحائط؛ لرجُلٍ ضعيف البنية، يختال أمام عرشٍ مرصَّع بالجواهر. لقد كانت تلك طريقته للقول، على منوال «ألكسي دي توكفيل»؛ «هذا هو الرجل الذي نُريد أن نحكم إيران معه».

ولا يزال هذا الشخص الطموح، وآخرون معه؛ يرغبون في استنقاذ «التحديث» عبر تقليص سلطات الشاه، والحد من أحلامه. لكنهم لم يَعقِلوا بعدُ أن التحديث في إيران هو ما يُعتبر اليوم ثِقَلًا مُعطِّلًا.

يؤسفني أن الفساد، الذي يجتذب الكثيرين من معدومي الضمير؛ لا يلفِتُ انتباه الباحثين النزهاء إلا قليلًا. فهل تعرفون أطروحةً في الاقتصاد السياسي، أو مؤلفات في التاريخ، أو في علم الاجتماع؛ قدَّمت تحليلًا جادًّا ومفصَّلًا لأشكال المضاربات، والإهمال الوظيفي، والاختلاس، والاحتيال؛ وكلها ركائز في العمل اليومي لتجارتنا، وصناعتنا، وشؤوننا المالية؟

ثم حدث، خلال زيارتي لطهران؛ أنْ التقيتُ، آخر المطاف؛ بالرجل المناسب لتفسير ذلك، وهو اقتصاديٌّ صارم تمتلئ عيناه بالدهاء.

أكَّد لي محاوري، ما سبق اطلاعي عليه؛ قائلًا: «لا، لم يكن الفساد من سوء الطالِع، الذي أضر بتنمية البلاد، ولا هو نقطة ضعف الأسرة المالكة؛ بل لطالما كان أسلوبًا لها في ممارسة السلطة وآليَّةً أساسيَّةً للاقتصاد. إنه الرابط الذي صنع توليفة الاستبداد والتحديث. لنَقُل إنه ليس خللًا خفيًّا، على نحو ما؛ بل هو **النظام ذاته**».

وقد حصلتُ من الرجل على عرضٍ مفصَّلٍ لـ«فساد أسرة پهلوي»، إذ كان هذا الأستاذ الماهر يعرِفُ الكثير بفضل صلاته المتينة، بحكم نشأته؛ بالثروة التقليديَّة للبلاد، حتى تسنَّى له معرفة حِيَل الماضي جيدًا. أما مهارتُه فقد مكَّنَتْهُ من فهم حقيقة العمليات الجارية، وطبيعة الأساليب المُتَّبَعَة اليوم.

لقد أوضح لي كيف أن رضا شاه، الذي وصل إلى السلطة دون أي دعم سوى الدعم الأجنبي، إذ لم يكن معروفًا قبلها؛ قد انخرط على الفور في استنزاف اقتصاد البلد، وذلك من خلال عمليات النهب التي يمارسها المنتصر؛ مثل مصادرة الثروات الإقطاعية الضخمة، ومساحات هائلة من الأراضي الخصبة على ضفاف بحر قزوين. ثم شرح لي ماهية النظام الذي يتبعه الفريق الحالي، إذ يعتمدون على الأساليب الحديثة؛ بدءًا باستغلال القروض الحكومية، والسندات البنكيَّة، ومؤسسات الإقراض كمؤسسة پهلوي.[1] علاوة على استمرار أشكال قديمة جدًّا، مثل الامتيازات التي تُمنح لأحد الأقرباء، والعائدات التي يتم النزول عنها للمقرَّبين من أهل الحظوة؛ فمجال العقار لأحد الأخوة، وللأخت التوأم[2] مجال المخدرات، وتجارة الآثار لابن هذه الأخت، والسكَّر عُهِدَ به إلى «فيليكس آغايان»، والأسلحة إلى «حسن طوفانيان»،[3] والكاڤيار إلى «أمير هوشنگ دولو»، حتى الفستق تم منحه لأحدهم. وأفضى «التحديث» بِرُمَّتِهِ إلى إقطاعات ضخمة؛ فصارت أرباح الإصلاح الزراعي إلى أيدي الشاه وعائلته بفضل «بنك عمران». أما المناطِق الجديدة، التي كان سيجري بناؤها في طهران؛ فقد وُزِّعَت كما لو كانت غنائم.

---

(١) هي في الأصل مؤسسة خيرية، تلقَّت إسهامات كبيرة من القطاعين العام والخاص، إلى الحد الذي تحوَّلت فيه إلى ميزانية ظل في إيران.

(٢) كان للشاه أخت توأم هي الأميرة أشرف، وقد عرفت بأنشطتها ومناصبها الكثيرة، وبنفوذها بين السياسيين. توفيت في فرنسا عام ٢٠١٦م. (المترجم)

(٣) عسكري إيراني (١٩١٣-١٩٩٨م)؛ خدم في القوات الجويَّة حتى بلغ رئاسة أكاديميَّة الجو الإيرانيَّة. وفي عام ١٩٧٧م صار نائب الشاه لوزارة الحرب، وعرَّاب التعاون العسكري مع إسرائيل. (المراجع)

لقد مزجت زمرةٌ صغيرةٌ جدًّا، من المنتفعين؛ بين مبادرات التنمية الاقتصادية، وبين الحقوق التي يتخذها المنتَصِرُ لنفسه. وإذا أضفنا لذلك أن الحكومة تُسيطر على جميع عائدات النفط، التي تخلّت عنها الشركات الأجنبية؛ وأن بوسعها منح نفسها شرطةً وجيشًا «خاصيْن» بها، وتوقيع عقود خرافية في أرباحها مع الغربيين؛ فكيف لنا حينها ألا نُدرِكَ أن الشعب الإيراني يرى في نظام پهلوي احتلالًا؟ نظامٌ له نفس الشكل والمدى الزمني، اللذين اتسمت بهما جميع الأنظمة الكولونياليّة، التي استعبدت إيران منذ مطلع القرن العشرين.

لذا، فمن فضلكم؛ لا تحدثونا بعد اليوم، في أوروپا؛ عن أوقاتٍ عصيبةٍ ومصائِبَ يُعاني منها مَلِكٌ حداثي، يقود بلدًا مُتَخَلِّفًا شديد القِدَم. إذ القديم ها هنا في إيران هو الشاه؛ فهو متأخِّرٌ عن زمانه بخمسين أو مئة عام. إن عصرهُ هو عصر ملوك النهب المفترِسين، وحلمُهُ عتيقٌ جدًّا، قَوامهُ انفتاح بلاده عبر العلمنة والتصنيع. إنَّ التخلُّف هو مشروع التحديث الذي يحمله الشاه اليوم، وأسلحتُه يستخدمها للاستبداد، ونظامُه قائِمٌ على الفساد. التخلُّف هنا هو «النظام» ذاته.

الإيمان في مواجهة الشاه(١)

طهران.(٢) تنقَسِمُ طهران إلى شطرين على طول المحور الأفقي. فتنمو المدينة الغنيَّة وسط مواقع البناء الضخمة وطرق سريعة لا تزال قيد الإنشاء، وتتمدَّد مساحتها ببطء فوق سفوح الجبال [شمالًا] باتجاه الجو المعتَدِل والهواء المنعش؛ حيث الڤيلَّات وحدائقها، التي تحيط بها الجدران العالية والأبواب المعدنيَّة الصلبة. ويقع البازار إلى الجنوب منها، فهو المركز القديم للمدينة وللضواحي الفقيرة. وعلى أطراف المدينة تمتد -على مرمى البصر- ثكنات شديدة الانخفاض، بحيث تتوارى خلف السهل الممتد بفعل الغبار. ثم يتغيَّر شكل المدينة أبعد من ذلك قليلًا، بسبب مواقع الحفر الضخمة، التي حُفِرَتْ على مرِّ القرون؛ لاستخراج الطين الذي بُنِيَت منه طهران. وهكذا، يقبع أسفل القصر الملكي، وفندق هيلتون، بنحو خمسمئة أو ستمئة متر؛ الحوضُ الذي شُيِّدَت منه المدينة فارغًا، وقد نُصِبَت أثواب حمراء وسوداء أعلى الحفَر والجحور؛ إذ اتُّخِذَت للسُّكنى.

---

(1) October 8, 1978: «Teheran: la foi contre le chah». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 683-688.

(٢) اقترح ميشيل فوكو لهذا المقال عنوان: «في انتظار الإمام» (ويَقْصِدُ به الإمام الثاني عشر في التقليد الشيعي). ويحمل هذا العرض، الخاص بالمذهب الشيعي؛ بصمة اللقاء الذي جمع فوكو بآية الله شريعتمداري، في قم؛ بتاريخ العشرين من سبتمبر عام ١٩٧٨م. وآية الله شريعتمداري، الذي يربو عمره على الثمانين [آنذاك]؛ هو فيلسوف مُستنير وفقيه في الدين، وأحد أهم القامات العلميَّة الشيعية. ويتمسَّك الرجل بتصوُّرٍ روحيٍّ للتشيع، بحيث استطاع أن يقنع ميشيل فوكو أن المذهب الشيعي لا يُولي أهميَّةً حصريَّةً للمطالبة بالسلطة الزمنية. وفي الرابع والعشرين من شهر فبراير ١٩٧٩م، بدأ شريعتمداري صراعه مع آية الله الخميني؛ إذ شجَّع على إنشاء «حزب الشعب الجمهوري الإسلامي»، المعارض للحزب الجمهوري الإسلامي [المقرَّب من الخميني]؛ ليقضي أيامه الأخيرة رهن الإقامة الجبرية.

وحيث تنتهي المدينة وتبدأ الصحراء، تلتقي موجتان بشريَّتان متعاكِسَتانِ في الاتجاه؛ موجة الفلَّاحين الذين هُجِّروا من منازلهم، بسبب فشل الإصلاح الزراعي؛ وموجة سكان الحضر الذين تطاردهم حركة التوسُّع الحضري المطردة. وهي ظاهرة ملحوظة في جميع أنحاء إيران، إذ ارتفع عدد سكان الحضر من تسعة ملايين إلى سبعة عشر مليونًا في غضون عشر سنوات.

واليوم، مثله مثل كل أيام الجمعة؛ انفصل شطرا المدينة اللذان اجتمعا طيلة أيام الأسبوع. فولَّى سكان الشمال وجههم باتجاه الشمال، إلى شواطئ بحر قزوين؛ فيما أوغَل سكَّان الجنوب في الارتحال جنوبًا إلى مدينة الرِي،(١) والمزار القديم لمرقد نجل الإمام علي الرضا (عليه السلام).(٢) إذ يسود التدافعُ والازدحام أرجاء الضريح، بحيث يعجز الناظر الأوروبي -بلا شك- عن تلمُّس الفارِق بين الاحتفال الشعبي والشعيرة الدينية. وقد حاول الشاه الاستيلاء على بعض هذا التيار؛ فشيَّد، بالقرب من المرقَد؛ قبرًا لوالده المسمَّى «رضا» هو الآخر.(٣) وهناك، خَطَّ الشاه شارعًا واسعًا، وعمَّر الأراضي، وزرع البساتين، ونظَّم الاحتفالات، واستقبل الوفود الأجنبية؛ لكنَّ سعيَهُ ذهب أدراج الرياح. ففي صراع الموتى؛ يتفوَّق ابن الإمام على أبي الشاه في كل جمعة.

وغالبًا ما يُساقُ في تفسير ذلك أنه «ما من شيء تبقَّى لهؤلاء المنكودين غير الزيارة، بعد أنْ اقتُلِعوا من حياتهم التقليدية. صحيحٌ أن حياتهم كانت على الدوام بائسة وغير مستقِرَّة، لكنَّهم اليوم مطارَدون بشبح البطالة -في كل آن- بسبب اقتلاعهم من أراضيهم الزراعية وَوِرَشهم الحرفيَّة، وقد أغرقتهم الوعود برواتب لا يمكنهم الحصول عليها إلا من أعمال الحفر أو البناء (غير المنتظمة هي

(١) هي الآن جنوب طهران، وجزء من محافظة طهران. (المراجع)

(٢) المقصود هو مرقد شاه عبد العظيم الحسني في جنوب طهران. والصحيح أن شاه عبد العظيم كان من أصحاب الإمام الرضا، وأبناء عمومته؛ وليس ابنًا له. فهو ابن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. (المراجع)

(٣) حوَّلته الثورة المظفَّرة إلى مرحاض عمومي! (المراجع)

الأخرى). والآن، وبعد أن هُجِّروا من مستقرهم على هذا النحو؛ أين سيجدون لأنفسهم ملاذًا سوى في المسجد وعند أهل الشرع؟».

يتعرَّض من يختارون الإبقاء على أراضيهم لعملية «الاقتلاع» نفسها، لكن بصورةٍ غير مباشرة؛ وذلك بتطوير الصناعات الزراعية فوق الأراضي الفلاحيَّة الخصبة، وزراعة محاصيل تصديرية، في حين يتم استيراد المحاصيل التي كانت في السابق تُنتَجُ محليًّا؛ فضلًا عن محاولات السلطة بناء هياكلَ إدارية جديدة. فقبل عدة أشهر، ظهرت لافتة، على طريقٍ مهجور؛ تُرَحِّبُ بالسائقين الذين يقصدون مدينةً تُدعى «ميبد».[1] لا أثر لهذه المدينة عند الناس، فسكان المنطقة الذين سألتُهم؛ لا يعلمون عنها شيئًا. ثم تبيَّن من الاستقصاء، الذي أجريتُه لاحقًا؛ أن خمس قرى صغيرة متفرِّقة قد جُمِعَت لتتشكَّل منها مدينة لا وجود لها إلا في مكاتبِ البيروقراطيين، وربما كان ذلك لمنفعة أحد المضاربين في قطاع الأراضي. وما من أحد سيلتفت اليوم إلى هذه المدينة، التي أُلقيت على الأرض كجغرافيا بلا جذور. لكنَّ السكان سرعان ما سيخضعون لنمط إدارة مختلف، ويُجبَرون على حياة مختلفة، وعلى التواصُل بعضهم مع بعض بطرائق مختلفة، وربما هُجِّروا من منازلهم.

فأين يمكن، لهؤلاء جميعًا؛ البحث عن الحماية والعثور على الهوية إن لم يكن في هذا الإسلام، الذي نظَّم، بعناية وعلى مدى قرون؛ الحياةَ اليومية والروابطَ الأسريَّة والعلاقات الاجتماعية؟ إن صرامتَه وثباتَه هما سبب فرار الناس إليه، إذ هو «**القيمة الملاذ**»؛ بحسب ما أجابني به أحد علماء الاجتماع الإيرانيين. لكني أراه غير مُصيبٍ فيما يقول، رغم معرفته الجيدة بإيران؛ ربما بسبب تأثُّره المفرِط بالتصورات الغربية (أو لعلَّه آثر التكتُّم أمام أوروبي مثلي).

---

(١) تقع في محافظة يزد. وهي مسقط رأس الميبُدي، الذي دوَّن تفسير العلاَّمة الأنصاري الهروي؛ المشهور بـ«كشف الأسرار». وربما كانت مما باد مع الغزو المغولي، وحاول نظام الشاه إحياءها. (المراجع)

نعرف طبعًا أن ذكرى ضحايا الشغب تم إحياؤها قبل ثمانية أيام،[1] إذ تجمّعت العوائِل وأصدقاء القتلى، والآلاف ممن ينتحِبون ويتضرَّعون بالدعاء؛ في مقابر طهران الشاسِعة التي تحمل اسم: «بِهِشْت زهرا»؛[2] حيث يرقد الموتى تحت طبقة رقيقة من الأسمنت، على مقرُبة من سطح الأرض. ثم، تحلَّق المجتَمِعون للنقاش، في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم؛ وقد توسَّطهم الملَّالي بجلابيبهم السوداء والرمادية، وتساءل الجمع بشيءٍ من الحدَّة، إذا ما توجَّب إسقاط الشاه؛ فهل يتم ذلك فورًا أم لاحقًا؟ أم يجب طرد الأمريكيين قبل ذلك؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟ هل يجب حمل السلاح أم الانتظار؟ هل يجب دعم نواب المعارضة. الذين يهاجمون النظام في البرلمان؛ أم شجبهم وفضحهم، لأنهم يجعلون العالم يَظُنُّ أن الإيرانيين يتنعَّمون بالحريَّات؟ ولاحقًا، في وقت متأخِّرٍ من المساء؛ كانت الحلقات حول علماء الدين قد اجتمعت، ثم تفرَّقت، ثم اجتمعت؛ عدَّة مرات. إنَّ هذا الحماس السياسي، الذي تشهده المقابر؛ أشبه بالشعيرة الدينية التي يتشاركها الأحياء والأموات.

وقبل ثمانية الأيام تلك، اجتاح آلاف المتظاهرين العُزَّل شوارع طهران، في مواجهة الجنود المسلحين؛ وهم يهتفون بشعارات مثل: «الإسلام، الإسلام!»، و«أيها الجندي، يا أخي، لماذا تُطلِقُ النار على أخيك؟ تعال معنا ننقذ القرآن»؛ و«يا خميني، يا وريث الحسين، يا خميني؛ نحن أتباعك». وقد تعرَّفتُ على أكثر من طالب، ممن نسميهم نحن وفق تصوراتنا بـ«اليساريين»؛ ولاحظتُ أنهم كتبوا شعار: «**الحكومة الإسلامية**»، بأحرُفٍ بارِزَةٍ؛ على اللافتات التي حملت مطالبهم، ورفعوها على أذرعهم.

---

(١) راجع أول مقالات الكتاب.

(٢) بالعربيَّة: «فردوس الزهراء»، وهي على الطريق الموصِّل من طهران إلى قُم، بالقُرب من مطار الإمام الخميني (المراجع)

ثم يتعيَّن علينا العودة إلى الوراء أبعد من ذلك؛ فالثورة كانت مستمِرَّةً في جميع أنحاء إيران طيلة العام، من المهرجانات إلى الاحتفالات، ومن العبادة إلى الوعظ والصلاة. واحتُفي بقتلى عُبادان في طهران، وبقتلى إصفهان في تبريز، وبقتلى قُم في إصفهان. وغُرِست أمام مئات المنازل فروع من الأشجار الكبيرة، لتُعلَّق عليها مصابيحُ بيضاء وحمراء وخضراء، تُضاءُ عند حلول الظلام؛ وفي ذلك إحالة إلى «چشن عروسى شهدا»، أي أعراس استشهاد الفتية الذين قُتلوا لتوِّهم.[1] وخلال ساعات النهار،كان الملالي يخطبون في المساجد، يحدوهم الغضب على الشاه والأمريكيين، وعلى الغرب وماديَّته؛ ويدعون -باسم القرآن والإسلام- إلى محاربة هذا النظام عن بكرة أبيه. وأينما كانت المساجد أصغر من أن تتسع للحشود المتجمِّعة؛ وُضِعَت مكبرات الصوت في الشوارع، فإذا القرية بأكملها، أو الحي بأسره؛ يَضِجُّ بأصوات مَهيبة تُشبِهُ صوت الراهب الإيطالي «جيرولامو سافونارولا»[2] في فلورنسا، أو المعمدانيين في مونستر، أو أتباع المشيخيَّة في عهد «أوليڤر كرومويل». وقد سُجِّلت العديد من هذه الخطب على أشرطة كاسيت؛ ذاعَت في أنحاء إيران. لقد أسمعنيها أحد الكُتَّاب حين كنتُ في طهران، رغم أنه لم يكن رجل دين، بل العكس؛ كان علمانيًّا. وإنَّ ما سمعتهُ حينها لم يكن مما يُوحي بانسحابٍ أو هروب، ولا بارتباكٍ أو خوف.

---

(١) هذه الممارسة احتفاء بالشهيد يستمد جذوره من الثقافة الإسلاميَّة، بما أن الشهيد يُزوَّج في الجنة. لكن احتفاء الإيرانيين بالموت عمومًا تعبير عن ارتباطه بالحياة، وهي ممارسة طقوسيَّة ترتبط في بعض جوانبها بالتقليد الشيعي؛ الذي لا يَفْصِلُ ذلك الفصل السُني الجامد بين الموت والحياة. إن ثمة احتفاء بالموت من داخل الممارسة الحياتية نفسها؛ إذ يستمر الموتى/ الشهداء موجودين في فضاء الحياة إلى أنْ يتجسَّد الحق بمقدم من سيُقيم هذا الحق؛ الإمام المهدي عليه السلام. صحيح أن حياة الشهداء معتقد إسلامي عام، لكنَّه في التقليد الشيعي أشد حيويَّة وحضورًا بسبب الوعي التاريخي المتأجج بمآسي استشهاد آل البيت منذ الحسين بن علي عليه السلام. (المترجم)

(٢) أخ دومنيكاني وراهب وداعية إيطالي (١٤٥٢-١٤٩٨م)؛ نشط في فلورنسا إبَّان عصر النهضة، واشتهر بدعوته لتجديد المسيحيَّة ونبوآته عن دمار الفن والثقافة الدنيويين. وقد انتقد فساد رجال الدين، ودورهم الاستبدادي، واستغلالهم للفقراء. هذا التطرُّف الطهوري جعل مصيره الإعدام، ورفعه في عيون كثير من البروتستنت، حتى عدوه التمهيد الحقيقي والمقدمة الطبيعيَّة لعصر الإصلاح الديني. (المراجع)

ولم أستشعر حاجة لأسأله عما إذا كان هذا الدين، في جوهره؛ مفتونًا بالموت. الدين الذي يدعو إلى القتال، ثم إلى الاحتفال بالأبطال؛ وربما كان أشد عناية بالشهيد منه بتحقيق النصر. لقد استَبقَت معرفتي إجابتهُ؛ إذ قال: «إنَّ الموت هو ما يُقلقكم، في الغرب؛ فأنتم تعتبرونه انفصالًا عن الحياة، ومن ثم؛ فهو يعلّمكم الاستسلام. أما نحن فنُعنى بالأموات لأنهم يربطوننا بالحياة، نتواصل معهم لأنهم مصدر إلزامنا الدائم بواجب العدل؛ تحدونا كلماتهم عن الحق وعن الجهاد الذي يجعل هذا الحق ينتصر».

أتعرفون العبارة التي تُثيرُ تهكُّم الإيرانيين هذه الأيام، والتي تبدو لهم قمّة في السذاجة، وذروة التمويه للحقيقة، وإمعانًا في التغريب؟ إنها عبارة: «الدين أفيون الشعوب»؛ فإلى اليوم، يخطُبُ الملَّالي في المساجد بألسِنَتِهم، وإلى جوار كلٍّ منهم بندقيَّة.

إن تسعين بالمئة من الإيرانيين شيعة، وهم ينتظرون عودة الإمام الثاني عشر؛ الذي «**سيملأ الأرض عدلًا كما مُلِئت جورًا**». لكن هذا الإيمان لا يُعلِنُ كل يوم أن هذا الحدث العظيم سيقع في اليوم التالي، ولا يقبل -إلى ما لا نهاية وبلا اكتراث- كل أشكال المعاناة المتعدِّدة في هذا العالم. وحين التقيت آية الله شريعتمداري (وهو بلا شك أعلى سلطة روحية في إيران اليوم)؛[1] صاغ أولى عباراته قائلًا: «نحن ننتظر المهدي، لكننا نُقاتِلُ كل يوم طلبًا للحكم الصالح». إن المذهب الشيعي يَهَبُ أتباعه تطلُّعاتٍ لا تنتهي، في مواجهة السلطة القائمة؛ وينفث فيهم حميَّة سياسيَّة ودينيَّة في الوقت نفسه.

ومدار الأمر ها هنا، وفي المقام الأول؛ هو الإيمان. إن القرآنَ عند الشيعة عادِلٌ، لأنه يُعبِّر عن الإرادة الإلهيَّة، وقد شاء الله (ﷻ) أن يكون عادِلًا. فالعدل [الإلهي] هو الذي أحدث القانون، وليس القانون هو الذي يصنع العدل. وبالطبع،

---

(١) يتحدث فوكو عن الشهور الأولى من عام ١٩٧٨م، ولم يكن نجم الإمام الخميني قد برز واضحًا بعد، ولا اكتملت سيطرته على المشهد الديني والسياسي في إيران. (المترجم)

تَجِبُ قراءة هذا العدل في «النص» الذي أوحى به الله إلى نبيه (ﷺ)، كما يمكن قراءتُه أيضًا في حياة الأئمة من أبناء علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وفي أقوالهم، وحكمتهم، وتضحياتهم النماذجية. لقد وُلدوا في دار النبوَّة، قبل أن يضطهدهم الحكم زمن الخلفاء الأرستقراطيين، الذين أصابتهم العجرفة؛ فنسوا العدل والمساواة القديمين. وإلى أنْ تؤدي رجعة الإمام الثاني عشر إلى إقامة هذا العدل مرة أخرى، ويُستعادُ برجعته كمال العدل؛ من الضروري الدفاع عن الأمَّة المؤمِنة ضد قوى الجور، بالمعرفة وبمحبَّة الإمام عليٍّ (عليه السلام) وآله، وكذلك بالشهادة.

ومن ثم، فهناك حقيقة تنظيميَّة، إذ لا تتحدَّد السلطة الدينية بين علماء الشيعة على أساس تسلسُلٍ هرمي تراتبيٍّ؛ فالشعب لا يتبع إلا من يرغب في الإصغاء لدعوته، وآيات الله، الذين استطاعوا اليوم إخراج شعب بأكمله إلى الشارع، في مواجهة الشاه وشرطته وجيشه؛ لم يُنَصِّبهم أحد، بل أصغى إليهم الناس طواعية. والأمر ذاته يحدث على المستويات الأدنى؛ فملالي الأحياء والقرى يجمعون حولهم من ينجَذِبونَ لكلامهم، ومن هؤلاء المتطوِّعين يستَمِدون قوَّتهم، وهم مصدر نفوذهم؛ ومنهم يحصلون على موارِدَ ينفقونها في تعليم تلاميذهم. وعلى عاتق هؤلاء الملَّالي أيضًا تقع المسؤوليات الملحَّة؛ إذ عليهم التنديد بالظلم، وانتقاد الإدارة، والانتفاض في وجه الإجراءات الجائرة، ولوم الظالمين، واقتراح الحلول لما يعانيه الشعب. ويشبِهُ رجال الدين هؤلاء ألواحًا حساسة، ينطبِعُ عليها الغضب والتطلُّعات التي يحملها المجتمع. فإذا ما رَغِبوا في معارضة هذا التيار [الشعبي]؛ فسيفقدون بذلك القوة الكامِنة في قُدرتهم على الحديث والإصغاء.

ولا ينبغي لنا ها هُنا المبالغة، إذ إن رجال الدين الشيعة ليسوا قوَّة ثوريَّة؛ بل هم من يمثل المؤسسة الدينية الرسمية في البلاد منذ القرن السابع عشر الميلادي. لقد تلقَّت المساجد وأضرحة الأئمة تبرُّعاتٍ سخيَّة، وهو ما أدى إلى تراكم أملاك كثيرة بأيديهم؛ فاشتعلت جرَّاء ذلك الكثير من ألوان الصراع، كما أفضت هذه الحال أحيانًا للتواطؤ مع أهل السلطة. لكنَّ ثمَّة اضطرابات عديدة كذلك في العلاقة مع السلطة،

حتى إن صحَّ أنَّ الملَّالي، وخاصة الأحظى منهم عند السلطة؛ كانوا في أغلب الأحيان في معسكر الثوار. فقد بلغ آية الله الكاشاني،[1] على سبيل المثال؛ ذروة شعبيته إبَّان تأييده لمصدق، وحالما غيَّر وِجهَتَهُ، وكفَّ عن ولائه له؛ طواه النسيان.

كما أن الملَّالي ليسوا «ثوريين» بحال، حتى بالمعنى الشعبوي للكلمة. لكن ذلك كله لا يعني أنَّ المذهب الشيعي مُرادِفٌ للجمود والركود، في مواجهة الحكم والتحديث المؤرِّق والمرفوض؛ ولا هو أيديولوجية منتشرة بين الناس، لدرجة اضطرار الثوريين الحقيقيين للتحالُفِ معها في مرحلةٍ ما. إنما هو أكثر بكثير من مجرَّد المفردات البسيطة، التي تُمرَّرُ من خلالها الطموحات العديدة؛ التي لم تجد لها مُعجمًا آخر يُعبِّر عنها. فالتشيُّع اليوم يجسِّدُ ما جسَّده عبر تاريخه كله؛ أي الشكل الذي يتخذه النضال السياسي حين تحتشِدُ خلفه طبقات الشعب. وهو يحيلُ إلى قوَّةٍ تتألَّفُ من آلاف أشكال السخط، والكراهية، والبؤس، والإحباط. وهو يجعل من ذلك كله قوَّةً لأنه يجسِّدُ شكلًا من أشكال التعبير، ونمطًا من العلاقات الاجتماعية، وتنظيمًا أوليًّا، مرنًا ومقبولًا على نطاق واسع؛ وطريقةً للتآزُر، وأسلوبًا للتحدُّث والإصغاء، وصلةً تسمح للجميع بأن يسمعوا بعضهم إلى بعض وتتوحَّدَ إراداتُهم.

فعجبًا لهذا المصير المذهل الذي يرتبطُ ببلادِ فارس!

ففي فجر التاريخ ابتكرت فارِس الدولةَ والإدارة، وأمدَّت الإسلام بوصفاتها في مجالات الحكم، واستعملت الإمبراطورية العربية ولاةً وحُكَّامًا من أبنائها. لكنَّ فارس قد اشتقَّت من الإسلام مذهبًا، استمرَّ عبر القرون في منح قوة لا يستهان بها لكل الذين يمكنهم أن يهبوا من صفوف الشعب معارضةً لسُلطة الدولة.

---

(١) السيد أبو القاسم الكاشاني (١٨٨٢-١٩٦٢م)؛ كان عالمًا حركيًّا شارك في ثورة العراق عام ١٩٢٠م، وعارض الوجود البريطاني، وناصر القضية الفلسطينية، وسجن بتهمة دعم الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. كان أهم الوجوه الدينية في إيران خلال الفترة ١٩٤١-١٩٥٣م. إذ عارض الشاه، وأيد مصدق في تأميم النفط، وحشد له الإيرانيين في تحالف متين دعم الأواصر بين الدين والسياسة. وقد التزم مصدق بتوصيات الرجل في مجالات مجتمعية، كمنع الخمور والدعارة؛ حتى دب الخلاف بينهما بدءًا من عام ١٩٥٢م. (المترجم)

بِمَ يَحلُمُ الإيرانيون؟[1]

«لن يتركونا وشأننا طواعية،[2] تمامًا كما لم يتركوا ڤيتنام». وقد وَدِدتُ الإجابة على محدثي بأنهم أقل استعدادًا لترك بلاده، مما كانوا عليه في ڤيتنام؛ لسببين اثنيْن هما: النفط والشرق الأوسط. أما اليوم، وبعد التوقيع على معاهدة كامپ ديڤيد؛ حيث يبدو أن الأمريكيين سيتركون لبنان للهيمنة السوريَّة، ومن ثَمَّ للنفوذ السوڤييتي؛ فكيف تَحرِمُ الولايات المتحدة نفسها من موقعٍ يسمحُ لها، بحسب الوضع المتفق عليه؛ باستعادة التأثير على موازين القوى في المعركة، أو السيطرة على السلام فيها؟

فهل سيدفع الأمريكيون الشاه نحو استعراضٍ جديد للقوة، و«جمعة أسود» آخر؟ قد تكون عودة الطلاب إلى الجامعات، وإضرابات الأيام الماضية، والاضطرابات التي تكرَّرت، والأعياد الدينية المرتقبة خلال الشهر المقبل؛ فرصةً سانحة لذلك، خاصة مع الوجود الحالي لـ«ناصر مقدم»،[3] على رأس جهاز السافاك؛ وهو الرجل ذو القبضة الحديدية.

---

(1) October 16-22, 1978: «À quoi rêvent les Iraniens?». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 688-694.

(٢) هذا المقال هو التقرير الصحفي الوحيد لفوكو عن إيران، الذي نُشِرَ في فرنسا؛ وهو مطابق لمقاله المنشور في الثاني والعشرين من أكتوبر [١٩٧٨م]، والمعنون بـ«عودة النبي»؛ لكن هذا المقال مزيدٌ باقتباس أُضيف إليه من المقال الأول في هذا الكتاب، واثنان من مقال: «الإيمان في مواجهة الشاه».

(٣) آخر مدير لجهاز السافاك ؛ أعدمته الثورة بعد سقوط الشاه. (المترجم)

هذا هو الحل البديل، لكنَّهُ ليس بالحل المرغوب فيه تمامًا، في الوقت الحالي؛ ولا هو بالأكثر رُجحانًا. كما أنه حلٌّ غير موثوق به؛ ذلك أنه إذا أمكن التعويل على مساندة بعض الجنرالات، فلا يمكن الجزم بإمكان الاعتماد على الجيش بجملته. كما أنه حلٌّ غير مفيدٍ أيضًا؛ لأنه لا وجود لأيِّ «خطر شيوعي» -من وجهة نظر معينة- سواء من الخارج، إذ لم يَدْنُ الاتحاد السوڤييتي من إيران طيلة الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة، بحسب المتفق عليه؛[1] أو من الداخل، إذ إن كراهية الإيرانيين للأمريكيين تضاهي -بالقدر نفسه- خوفهم من السوڤييت.

وخلال الأسابيع الأخيرة، اجتمع رأي مستشاري الشاه، والخبراء الأمريكيين، وتكنوقراط النظام، وصولًا إلى دوائر المعارضة السياسية (سواء الجبهة الوطنية،[2] أو الشخصيات الأميل لـ«الاشتراكية»)؛ فاتفقوا، وبطيب خاطر؛ على محاولة تدشين عمليَّة «تحول ليبرالي» للنظام، متسارِعة وفوريَّة؛ أو على الأقل فتح المجال لها طوعًا. والنموذج الإسپاني -للتحول- هو المفضَّل اليوم بين القيادات السياسية؛ فهل يمكن نقله إلى إيران؟

لكنَّ هذا النموذج يطوي العديد من المشكلات التقنية، مثل أسئلة السياق الزمني؛ فهل يتم ذلك الآن، أم في وقت لاحق؛ إذا ما تعرَّض النظام لـ«أزمة أخرى عنيفة»؟ علاوة على أسئلة أخرى حول الأشخاص الذين سيُعتمَدُ عليهم؛ هل يتم ذلك في وجود الشاه، أم بدونه؟ وهل يعتمد هذا التحول على الابن، أو ربما على

(١) عشية الحرب العالمية الثانية، وبضغط من الولايات المتحدة الأمريكية؛ اضطر الروس إلى الانسحاب من الجزء الشمالي الغربي لإيران؛ وكانت تلك أول مرة يُـعيد فيها ستالين أرضًا احتلها الروس في الحرب العالمية الثانية. كذا قضت البنود الضمنية، التي رسخت الوضع الاستراتيجي بعد الحرب؛ بأن يتحول النفوذ الروسي والبريطاني في إيران لصالح الأمريكيين المنتصرين في الحرب، وهو ما يتجلى بوضوح في الدور الذي لعبه هؤلاء في الإطاحة بمصدق، وإعادة الشاه إلى عرشه. وفي عام ١٩٥٤م، عقدت الحكومة الإيرانية اتفاقيَّة التزمت بموجبها بمنح امتيازات استخراج النفط للشركات الأمريكية والإنكليزيَّة والفرنسية والهولندية لأجل يدوم خمسة وعشرين عامًا. (المترجم)

(٢) والمقصود في هذا السياق هي «الجبهة الوطنية الثالثة»، التي تولى رئاستها الدكتور «كريم سنجابي»؛ وكانت تضم كل أحزاب المعارضة باستثناء الشيوعيين. وقد كان دعم الجبهة للثورة وللإمام الخميني -نهاية العام ١٩٧٨م- حاسمًا بهدف توحيد الحركة الثورية، التي أطاحت بحكم الشاه. (المترجم)

الشهبانو؟ وهل ما زال «علي أميني»[1] يحتفظ بمهارته، إذا ما كُلِّفَ بقيادة عمليَّة التحول؟ فالرجل دبلوماسي قديم شغل في السابق منصب رئيس الوزراء.

كذا، فثمة اختلافات كبيرة بين إيران وإسبانيا. فقد حال فشلُ التنمية الاقتصادية في إيران دون إرساء القاعدة الاجتماعية لنظام ليبرالي حديث على النمط الغربي. وبالمقابل، اندفعت هبَّة شعبية كبيرة، هذا العام؛ زلزلت صفوف الأحزاب السياسيَّة، التي كانت في طور إعادة البناء؛ وألقت لتوها بنصف مليون إنسان في شوارع طهران، ليواجهوا المدافع الرشاشة والدبابات. كما أنَّ تلك الهبَّة لم تهتف بشعارات كشعار: «الموت للشاه» فحسب، بل كذلك بشعارات مثل: «الإسلام، الإسلام، الخميني، نحن أتباعك»، بل وبشعار: «ليس للشاه سوى الخميني».

إذ يبدو كما لو أن الوضع في إيران عالِقٌ في مُنازَلَةٍ كبرى بين شخصيتيْن، تعكسان شعاريْن تقليديْين؛ هما الملك والقدِّيس الوَرِع، أو الحاكم المسلَّح والمنفيُّ الأعزل، أو الطاغية الذي يواجهه رجل بلا سلاح يحظى بحفاوة الشعب على بكرة أبيه. وهو مشهدٌ له قوَّةُ الجذب الخاصة به، لكنه ينبني كذلك على حقيقة كون ملايين القتلى، الذين سقطوا في هذا النزال؛ قد مهروه بخاتم المصداقيَّة.

ويفترض هذا التحول الليبرالي السريع، الذي لا يُهدِّدُ بفراغٍ في السلطة؛ دمجَ هذه الحركة، أو السيطرة عليها في أقل تقدير. لكن هذا يستلزِم، في المقام الأول؛ معرفة اتجاه هذه الحركة، والمدى الذي تتغيَّا بلوغه. وخلاصة ما حدث بالأمس هو أن آية الله الخميني، ورغم الضغوط الكثيرة؛ قد «أفشَلَ كل الخطط»، وقد فعل ذلك من ملاذه في باريس.

---

(١) سياسي إيراني (١٩٠٥م-١٩٩٢م)؛ درس القانون في فرنسا وانضم إلى السلك القضائي الإيراني. عمل مساعدًا لرئيس الوزراء عام ١٩٤٠م، ثم وزيرًا للاقتصاد ثم العدل في ١٩٥٥م، وسفيرًا لإيران في واشنطن (١٩٥٦-١٩٥٨م)، ثم رئيسًا للوزراء (١٩٦١-١٩٦٢م). وقد شغل أميني منصب وزير المالية في حكومة الجنرال «فضل الله زاهدي» الانقلابيَّة، التي أطاحت بمصدق؛ ليعقد مع الأمريكيين المعاهدة التي التزمت إيران بموجبها بأجل الخمسة والعشرين عامًا لامتيازات استخراج النفط للشركات الغربيَّة. (المترجم)

إذ ناشد الطلاب، وفي الوقت نفسه كل المسلمين، وكذلك الجيش؛ أن يُعارِضوا -باسم القرآن وباسم الوطنيَّة- كل مشروعات التسوية تلك، التي تتحدَّث عن الانتخابات، وعن الدستور، وما إلى ذلك من وعود.

فهل هذا هو الانشقاق في صفوف المعارضة، الذي استشعره الجميع منذ فترة؟

يحاول «السياسيون»، في هذه المعارضة؛ طمأنة أنفسهم بأن «هذا حسن. إذ سيرفع تصعيد آية الله الخميني سقفَ الرِهانات، ويُعزِّزُ من قوتنا أمام الشاه والأمريكيين. واسم الرجل ليس إلا محض شعارٍ يُهتَفُ بِهِ، فهو لا يملك برنامجًا واضحًا يطرحه. ولا تنسوا أن الأحزاب ما عادت لها قدرة على التعبير عن نفسها منذ العام ١٩٦٣م. ربما نتحالف مع آية الله الخميني في هذه اللحظة. ولكن بمجرَّد إزالة الديكتاتورية؛ سيتبدَّد كل هذا الضباب، وستتسلَّم الكوادر السياسيَّة الحقيقيَّة دفَّة القيادة، وسرعان ما سننسى حينها الداعية العجوز». لكنَّ الطنين الذي عمَّ محيط إقامة آية الله «شبه السريَّة» في الضواحي الباريسية. نهاية الأسبوع؛ وجولات الشخصيات الإيرانية «المهمة»، التي تردَّدت عليه للزيارة جيئة وذهابًا؛كانت كلها تدحض هذا التفاؤل المتسرِّع، إلى حد ما. إذ كان كل شيء يَدُلُّ على أن ثمة إيمانًا بقوَّة التيار الغامض، الذي يَصِلُ بين رجلٍ عجوزٍ يقيمُ في المنفى، منذ خمسة عشر عامًا؛ وبين شعبه الذي يهتِفُ باسمه.

إن طبيعة هذا التيار هي التي أثارت اهتمامي منذ أن أُخْبِرتُ بخبره قبل بضعة أشهر. ويجب علي الاعتراف بأني كنت قد ضِقْتُ ذرعًا بما يكرره الكثيرون من الخبراء، المحسوبين على إيران؛ إذ يقولون بثقة: «نحن نعرِفُ ما الذي لا يريدونه من الآن فصاعدًا، لكنَّهم ما زالوا لا يعرفون ماذا يريدون».

«ما الذي تريدونه؟»؛ كان هذا هو السؤال الوحيد، الذي حملته إلى طهران وقُم؛ في الأيام التي تَلَتِ الإضراب مباشرة. وقد حَرَصتُ على عدم طرحه على السياسيين، بل فضَّلتُ أحيانًا التحدُّث طويلًا مع المتدينين والطلاب، والمثقفين

المهتمين بمشكلات الإسلام، أو حتى مع هؤلاء المقاتلين السابقين؛ الذين تخلَّوْا عن النضال المسلح في عام ١٩٧٦م، وقرَّروا العمل من داخل المجتمع التقليدي، وَفقَ إجراءات وأنماط مختلفة بالكليَّة.

سألتُ: «ماذا تريدون؟»؛ فلم أسمع بالمرَّة لفظ «الثورة»، ردًّا على هذا السؤال؛ خلال إقامتي في إيران، لكني أُجِبْتُ لأربع مرات، من أصل خمسة؛ بعبارة: «**الحكومة الإسلامية**». ولم تكن تلك مفاجأة؛ إذ إن آية الله الخميني كان قد سبق بهذه الإجابة البليغة للصحافيين، ولم يَزِدْ على ذلك.

فما الذي تعنيه تلك العبارة بالضبط في بلدٍ مثلِ إيران؟ بلدٌ ذو أغلبية مسلمة كبيرة، بل بلد غير عربي وغير سُني؛ ومن ثمَّ أقلُّ اهتمامًا بالوحدة الإسلامية أو بالقوميَّة العربيَّة؟

وفي واقع الأمر، يطوي الإسلام الشيعي عددًا من الخصائص من شأنها أن تمنح الرغبة في إنشاء «**الحكومة الإسلامية**» لونًا خاصًا. فمن جهة الخصائص التنظيمية؛ يغيب التسلسُل الهرمي في المؤسسة الدينية، مُفضيًا إلى استقلال رجال الدين بعضهم عن بعض، مع الاعتماد على مُقلِّديهم (لاسيما من الناحية المالية)، لتبرُز أهميَّة السلطة الروحية بذاتها، والدور الذي تلعبه المؤسسة الدينية، بوصفها صدىً ومرشد؛ للحفاظ على نفوذها. أما من جهة العقيدة، فإن مبدأ عدم اكتمال الحقيقة بختم النبوَّة؛ يجعل مرحلة الإمامة مُتمِّمًا لمرحلة النبي محمد (ﷺ). إذ تبدأ بالإمامة حلقة أخرى، لم تكن قد اكتملت بالوحي؛ وتتجسَّد هذه المرحلة فيما تطويه أقوال الأئمة، والقدوة التي يمثلونها، والتضحيات التي يُقدِمون عليها؛ من هدي ونور، ثابت ومتغير في آن؛ فهو الهدي الذي يَكشِفُ باطِن الشريعة، التي لم تُنزَّل للاحتفاظ بها خامِلةً، بل لإشاعةُ المعاني الروحية الكامنة فيها على مر الأزمان. لذلك، فإن الإمام الثاني عشر، رغم كونه مستورًا إلى يوم رجعته الموعودة؛ ليس غائبًا بشكل جذري ونهائي، إنما هو بانتظار أن يَسترجِعَهُ المؤمنون أنفسهم؛ ليكشف لهم عين الحقيقة التي يسهرون على حراستها.

وغالبًا ما يقال إن التشيُّع يرى أن كل سلطةٍ باطِلة مادامت ليست سلطة الإمام. لكن عندنا أن الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير. وقد أخبرني آية الله شريعتمداري، في الدقائق القليلة الأولى للقائنا؛ برأيه في ذلك قائلًا: «نحن ننتظر عودة الإمام، لكن هذا لا يعني أننا نتخلَّى عن إمكانية قيام حكومة عادِلة. أنتم أيضًا تحاولون ذلك، معشر المسيحيين؛ رغم أنكم تنتظرون ملكوت الرب». وقد كان أفضل تصديقٍ على حُجَّتِهِ، أن آية الله كان محاطًا -حين استقبلني- بالعديد من أعضاء لجنة حقوق الإنسان في إيران.

وينبغي علينا، في هذا المقام؛ البيان أن استعمال اصطلاح «**الحكومة الإسلامية**»، اليوم في إيران؛ لا يُقصَدُ منه نظام سياسي تلعب فيه المؤسسة الدينية دورًا قائدًا أو موجِّهًا.[1] ويبدو لي أن التعبير يُستعمَلُ للدلالة على أمرَيْن اثنَيْن: أنها «طوبيا» كما أخبرني بعضهم، دون أدنى مقصد تحقيري وراء المصطلح؛ وهي كذلك «مثَلٌ أعلى» كما أخبرني معظمهم. وعلى أيَّة حال، فإن «**الحكومة الإسلامية**» تجسِّدُ شيئًا موغِلًا في القِدَم، لكنه في الوقت نفسه يكمُنُ في المستقبل؛ إذ هي العودة إلى عهد الإسلام المبكِّر زمن النبي (ﷺ)، وفي الوقت نفسه حركة باتجاه نقطة مضيئة وبعيدة، بحيث سيصير بالإمكان تجديد الصلة بالإخلاص ليَحِلَّ محلَّ التشبُّث بالخضوع والطاعة. وفي خِضَمِّ السعي باتجاه هذا المثل الأعلى، بدت لي الأهمية التي يحتلها انعدام الثقة في المدوَّنة القانونية، مع الإيمان بقدرة الإسلام على الاجتهاد والابتكار.

ثم شرح لي أحد المراجع كيف أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا، وجهدًا مُضنيًا؛ يبذله خبراء مدنيون وعلماء دين وباحثون مؤمنون، لتقصي جميع الإشكالات المطروحة، التي لم يُورِدْ لها القرآن إجابةً مفصَّلة، بيد أنه تناولها بتوجيهات عامة. فالإسلام يُثمِّن العمل، ويُجرِّم حرمان أي شخص من ثمار عمله، كما يمنع

(١) كُتِبَ المقال في مرحلة جد مبكرة، قبل حتى كتابة مسودة الدستور، ومن ثم؛ فهو لا يُعبِّر عما آلت إليه الأمور. (المراجع)

صيرورة الملكيَّات الإنسانيَّة العامة (كالماء، وما يطويه باطِن الأرض) إلى ملكيَّة خاصة، لكائنٍ من كان. أما الحريَّات فتُحتَرَمُ إلى الحد الذي لا يؤدي معه استعمالها إلى الإضرار بالآخرين، ومن ثم؛ تتم حماية الأقليات وكفالة حرياتها، شرط ألَّا يضُرَّ ذلك بالأغلبية. ولن تنعَدِم المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق، بل سيُراعى اختلافهما الراجع للفروق الطبيعية بينهما. وفي السياسة؛ تُتخَذ القرارات بالأغلبية، ويصير القادة مسئولين أمام رعيَّتهم، ولكل امرئ حق الوقوف بوجه الحاكم، ومحاسبته؛ كما ينصُّ القرآن.

وعادةً ما يُقال إن تعريفات **«الحكومة الإسلامية»** غير دقيقة، لكنها بدت لي، وعلى العكس من ذلك؛ جد مألوفة، وإنْ تعيَّن عليَّ القول إنها غيرُ مُطَمئِنةٍ تمامًا. لذلك أردفتُ بالقول إن «هذه هي القواعِد التأسيسيَّة للديمقراطية، سواء أكانت بورجوازية أم ثورية؛ ونحن لم نتوقف عن ترديدها منذ القرن الثامن عشر، وتعرفون ما آلت إليه الأمور عندنا»؛ فحصلتُ من فوري على إجابة بأن «القرآن الكريم قد قال بها قبل فلاسفتكم بزمنٍ طويل، وإذا كان الغرب المسيحي والصناعي قد فقد قدرته على إدراك معناها؛ فإن الإسلام يعرف كيف يحافظ على قيمتها وفاعليتها».

حين يتحدث الإيرانيون عن **«الحكومة الإسلامية»**، وحين يهتفون في الشوارع مُطالبين بها، وهم مُهدَّدون بالرصاص؛ وحين يرفضون باسمها تعامُلات وصفقات الأحزاب والسياسيين، رغم احتمال حدوث مذابح؛ فإنما يجول بأذهانهم وتطوي قلوبهم شيء آخر غير تلك الصيغ التي تُلقى عليهم من كل مكان. واعتقادي أنهم يؤمنون بكونها حقيقة جد قريبة، لأنهم هم أنفسهم الفاعلون فيها.

إذ هي، في المقام الأول؛ حركةٌ تميل إلى إيكال دور دائم للبنى التقليدية، للمجتمع الإسلامي؛ في الحياة السياسية. ذلك أن **«الحكومة الإسلامية»** هي التي ستُبقي على هذه الآلاف من البؤر السياسية، التي اضطرمت في المساجد وبين المجموعات الدينية النَشِطة في مقاومة نظام الشاه. وقد بلغني مثال يصلُح لهذا السياق؛ فقبل عشر سنوات وقع زلزال في مدينة فردوس، حتى صار لزامًا

إعادة بناء المدينة بأسرها. ولأن المشروع المعتَمَد من الحكومة لم يُرضِ معظم الفلاحين والحرفيين الصغار؛ فقد اعتزموا الانفصال عنه، وقرروا، تحت إشراف علماء دين؛ أن يؤسسوا مدينتهم أبعدَ قليلًا. فجمعوا التبرعات من أنحاء المنطقة المحيطة، وعزموا جماعيًّا على بناء المساكن، وتنظيم إمدادها بالمياه، وإنشاء التعاونيات. وأطلقوا على مدينتهم اسم: «اسلاميه». لقد كان الزلزال فرصة لجعل الهياكل الدينية لا مُجرَّد نقطة ارتكازٍ للمقاومة، بل مبدأ إبداعٍ سياسي. وهذا هو عين ما تستدعيه الأذهان حين يُستحضَر مصطلح: «**الحكومة الإسلامية**».

كذا يستدعي الذهن حركة أخرى، هي كالنقيض والبديل للحركة للأولى؛ وهي حركة تسمح بإدخال بُعْدٍ روحيٍّ في الحياة السياسية، لتُحَوِّل الحياة السياسية من كونها عائقًا أمام الحياة الروحيَّة، كما يحدث دومًا؛ إلى وعاءٍ لها، ومناسبتِها وخميرتِها. وفي هذا الموضِع نفسه يُلقي «علي شريعتي» بظله، الذي يغطي الحياة السياسية والدينية في إيران اليوم؛ إذ منح موتُه، قبل عامين [من انتصار الثورة]؛ مكانةً مميَّزةً جدًّا للحاضر الغائب، أوالغائب الحاضر دومًا؛ في المذهب الشيعي.

كان شريعتي، المتحدِّر من بيئة دينية؛ قد اتصل، إبَّان دراسته في أوروبا؛ بقادة الثورة الجزائرية، وبحركات مختلفة من اليسار المسيحي، وبتيارٍ كامل من الاشتراكية غير الماركسية؛ فتابع دروس «جورج غورڤتش»، وقرأ كتابات «فرانز فانون» و«لويس ماسينيون»؛ قبل عودته إلى مدينة مشهد ليَبُثَّ في تلاميذه أن المعنى الحقيقي للتشيُّع لا يجب البحث عنه في دينٍ صار منذ القرن السابع عشر الميلادي مذهبًا رسميًّا، بل في تعاليم العدالة والمساواة الاجتماعية، التي سبق أن دعا إليها الإمام الأول: علي بن أبي طالب (عليه السلام). ثم كان من «حُسن طالعه» أنْ أَجبرَه الاضطهاد على الارتحال إلى طهران، وإلقاء دروسه خارج الجامعة؛ في غرفة أُقيمت له في ملحق قرب أحد المساجد،[1] متحدِّثًا إلى جمهورٍ بدأ معدودًا

(١) المقصود هي «حسينيَّة الإرشاد» في طهران، وجلي أن فوكو لم تتح له الفرصة للتعرُّف على هذا النمط من «المؤسسات» الدينيَّة-الاجتماعيَّة، وهو أمر جد غريب بسبب ضخامة دورها؛ فاعتبرها من ثم مجرَّد «غرفة» في ملحق تابع لأحد المساجِد! (المراجع)

ثم سرعان ما صار يُعَدُّ بالآلاف، من الطُّلاب، والملَّالي، والمثقفين، وشباب حي البازار؛ القادمين من المحافظات الأخرى. وقد نال شريعتي خاتمة تليق بالشهداء، إذ جرت ملاحقتُه وحُظِرَت كتبه؛ ليُسلِّم نفسه للاعتقال لاستنقاذ والده إذ اعتُقِلَ بدلًا منه. وقد قضى عامًا في السجن، ثم أرسِل إلى المنفى؛ حيث توفي بعد فترة وجيزة، وهي ميتة يعتقد الكثيرون في إيران أنها لم تكن طبيعية. وقد كان اسم شريعتي هو الاسم الوحيد الذي هتفت به الجماهير، جنبًا إلى جنب مع اسم آية الله الخميني؛ في التظاهُرة الضخمة التي شهِدتها طهران.

وأنا لا استسيغ وصف «**الحكومة الإسلامية**» بأنها «فكرة»، أو حتى «مثل أعلى»؛ لكنها قد أبهرتني بوصفها «إرادة سياسيَّة». فقد خَلَبَت لُبِّي في سعيها لتسييس أبنيةٍ، يمتزِجُ فيها الاجتماعي والديني؛ استجابةً لإشكالاتٍ راهنة، كما فتنتني محاولتها إضفاءَ بُعدٍ روحي على السياسة.

وتثير هذه الإرادة السياسية، على المدى القصير؛ مسألتيْن اثنتيْن:

أولاهما هل هي قوية الآن، بما يكفي؛ وهل تجلَّى الإصرارُ عليها، بما فيه الكفاية؛ ليمنع تطبيق «حلِّ أميني»،[1] الذي يميل إلى نظام برلماني على النمط الغربي؛ وهو الحل الذي يُوصَفُ بأنه إيجابي (أو حتى سلبي) فقط لكونه مقبولًا لدى الشاه، وموصى به من قِبَلِ القوى الأجنبية. فهل تملِك «الإرادة السياسيَّة» من القوَّة ما يمنح الدين الإسلامي موقع الامتياز داخل النظام؟

أما الثانية، فهل هذه الإرادة عميقة بما يكفي، لتصير سمة دائمة للحياة السياسية الإيرانية، أم أنها ستتبدَّد، كسحابة صيف؛ حينما تنقشع غيوم «الواقع السياسي» آخر الأمر، ويصير بالإمكان أخيرًا الحديث عن البرامج، والأحزاب، والدستور، والخطط؛ وما إلى ذلك؟

(١) بسبب العلاقة الوطيدة بين «علي أميني» والأمريكيين؛ فقد نصح الشاه، بحسب عدد «لوموند» الصادر في ١٠ سبتمبر ١٩٧٨م؛ بأن يحتفظ بالملك دون أن يحكم، وبأن يعهد بتدبير الأمور إلى حكومة ائتلافية تضم جميع أحزاب المعارضة. وهذا هو ما سُمي بـ«حل أميني».

سيقول السياسيون إنَّ الإجابة عن هاتين المسألتين هو ما يهيمن اليوم على قسمٍ كبير من تكتيكاتهم. لكن ثمة سؤالين آخرين كذلك، حول هذه «الإرادة السياسية»؛ يعنياني بدرجة أكبر:

أولهما يخص إيران ومصيرها المتفرِّد. فقد ابتكرت بلاد فارس الدولة، في فجر التاريخ؛ وساقت وصفاتها إلى الإسلام، وخدم إداريوها كعناصِرَ في نظام الخلافة. لكنَّها قد استمدَّت، من هذا الإسلام نفسه؛ مذهبًا منح شعبها موارِدَ غير محدودة لمقاومة سلطة الدولة. فهل يجب أن نرى من هذه الإرادة، الراغبة في «حكومة إسلامية»؛ مصالحة ما، أم تناقُضًا، أم باكورة أمر جديد؟

أما السؤال **الثاني** فيخُصُّ هذه البقعة المنزوية من الأرض، التي يتعرَّض ظهرها وبطنها لرهانات الاستراتيجيات العالمية. فما الغاية التي يبتغيها هؤلاء، الذين يعيشون فوق هذه الأرض؛ من بحثهم الدؤوب، على حساب حياتهم ذاتها؛ عن الروحانية السياسية، التي نسينا نحن إمكانية إيجادها منذ عصر النهضة والأزمات الكبرى التي عرفتها المسيحية؟ أكاد أسمع ضحك الفرنسيين من هذا التحليل الآن، لكنني أدرك جيدًا أنهم على خطأ.(١)

(١) تحتوي النسخة الإيطالية من المقال على جملة إضافية في هذا الموضع: «رغم أني لا أعرف عن إيران سوى النزر اليسير».

ثورة العُزَّل(1)

طهران. كانت استجابة ملوك القرن الماضي للانتفاضات أيسر. إذ كانوا يُشاهَدون وهم يغادرون قصورهم في الصباح الباكر، فارِّين في سياراتهم السوداء الكبيرة؛ بعد أن يفوضوا صلاحياتهم لوزيرٍ كيِّسٍ ومتلهِّفٍ للسلطة. هل كان أهل السلطة في ذلك الزمان أكثر جُبنًا مما عليه حكام اليوم، أم كانوا أقل ارتباطًا بالسلطة، أم أكثر حساسية تجاه سهام الكراهية الموجَّهة نحوهم، أم تُراهم كانوا ببساطة أقل تسليحًا؟ حقيقة الأمر، كانت الإطاحة بالحكومات -في ذلك الوقت- أيسر، حالما يخرج الناس إلى الشوارع.

لكن إسقاط نظام حاكم في القرن العشرين يلزمه أكثر من تلك «العواطِف». إذ يستلزِم الأمر أسلحة، وقيادة عسكرية، وتنظيم، وإعداد... إن ما يحدث في إيران اليوم يكفي لإثارة دهشة المراقبين؛ فلن يعثروا في المشهد الإيراني على ما يُشبِهُ نموذج الصين أو كوبا أو ڤيتنام، بل سيجدون موجة بشريَّة مدنيَّة هائلة، بلا تنظيم عسكري، أو طليعة، أو حزب سياسي. كما لن يجدوا في المشهد الإيراني حركات كتلك التي ازدهرت عام ١٩٦٨م [في فرنسا]، لأن الرجال والنساء الذين يتظاهرون في إيران، وهم يحملون اللافتات والزهور؛ أصحاب هدفٍ سياسيٍّ مباشر؛ إذ يهاجمون الشاه ونظامه وتراهم وقد شغلهم، هذه الأيام؛ همُّ الإطاحة به.

(1) November 5, 1978: «Une révolte à mains nues». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 701-704.

حين غادرتُ طهران قبل شهر،كان واضحًا لنا أن الحركة التي بدأت قد قطعت خطَّ الرجعة، لكننا توقَّعنا أنها ستتقدَّم ببطء، إذ تواجِهُ فترات توقُّفٍ مفاجئة؛ فقد تقع مذابح إذا ما صارت الحركة أكثر كثافة وحِدَّة، أو يصيبها التشتُّت إذا ما اتسع مداها، أو تتراخى شدتُها إذا ما بدت غير قادرة على تطوير برنامجها الخاص. لكن شيئًا من هذا كله لم يحدث، واتخذ سير الأحداث وتيرة جد سريعة.

وتكمُن المفارقة الأولى، والسبب الأول؛ في هذا التسارُع في أنه، طيلة عشرة أشهر؛ جابَهَ الإيرانيون نظامًا هو من بين الأفضل تسليحًا في العالم، وقوات شرطةٍ يُعرَف عنها أنها لا تُقهَر. كل ذلك بأيديهم العارية، ودون اللجوء إلى الكفاح المسلَّح؛ يحدوهم إصرار وشجاعة أصابت حركة الجيش بالشلل. لقد تجمَّد هذا الجيش تدريجيًّا، متردِّدًا في إطلاق النار؛ وفيما سقط ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف قتيل في محيط ميدان جاله، قبل شهرين؛ فقد تظاهر مائتا ألف شخص أمام الجنود الذين لم يُحرِّكوا ساكنًا بالأمس. ثم انتهت الحكومة إلى خيار إطلاق «قوات خاصة»، لإثارة استفزاز الجماهير؛ لكن بلا فائدة. وكلما اقتربت الأزمة الحاسمة؛ قلَّ استعمال الأسلحة. لقد نجحت انتفاضة مجتمع بكامله في وأد احتمالات الحرب الأهلية في مهدها.

أما المفارقة الثانية، فهي انتشار التمرُّد دون أن يصيبه تشتُّت أو تتنازع أطرافه. إذ ربما كانت عودة الدراسة إلى الجامعة لتُفضي إلى تصدُّر أكثر الطلاب ميلًا للتغريب والماركسية للمشهد، ليفوق وجودهم ملالي الأرياف؛ وربما كان إطلاق سراح أكثر من ألف سجين سياسي داعِمًا لاحتمال احتدام الصراع بين المعارضين القُدامى والجدد، وأخيرًا وليس آخرًا؛ ربما كان إضراب عمال قطاع النفط ليُثير قلقَ برجوازية البازار من جهة، ويستوعب الإضراب في دائرة من المطالب الفئويَّة، من الجهة الأخرى؛ مؤديًا إلى انفصال القطاع الحديث والصناعي عن الصناعات «التقليدية» (إذ اعتمدت الإجراءات الحكوميَّة زيادات في الرواتب؛ بغية بلوغ هذا الهدف). لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وإنما سارت الأمور على

الوجه المرجو. إذ منح العمال المضرِبون للحركة سلاحًا اقتصاديًا هائلًا؛ فقد أدى توقُّف مصافي تكرير البترول إلى تجفيف موارد الحكومة، وأضفى بُعدًا دوليًا على الأزمة الإيرانية. وصار الشاه، في عيون زبائن النفط الإيراني؛ عقبة أمام استمرار إمداداتهم. فكان ذلك كله أفضل جوابٍ ممكن على الذين أطاحوا سلفًا بمصدق، وأعادوا الملكية بانقلاب؛ أملًا بأن تُتاح لهم سيطرة أفضل على إمدادات النفط.

وقد تمثَّلت المفارقة الثالثة في أنَّ غياب أهداف طويلة المدى للحركة لم يكن عاملًا من عوامل الضعف، بل على العكس من ذلك؛ فعلاوة على أن الحكومة لا تملك برنامجًا، فقد أثمرت الشعارات القصيرة المدى للحركة إرادة صلبة اتسمت بالوضوح والإصرار، كما حظيت بقدرٍ كبير من الإجماع.

تَمُرُّ إيران حاليًا بحالة إضراب سياسي عام، وأعني بذلك أنها في إضراب موجَّه للواقع السياسي، وهو ما يتجلَّى في اتجاهيْن اثنين: رفض إطالة عمر النظام بأي حال، ورفض استمرار أجهزته وإدارته واقتصاده في العمل بصورةٍ طبيعيَّة. كذا، ثمة رفض لإفساح المجال لمعركة سياسية يكون مدارها على الدستور المستقبليُّ، والخيارات الاجتماعيَّة، والسياسة الخارجيَّة، والبديل المرتقب. وليس ذلك لأن الإيرانيين لا يناقشون هذه المسائل، بل رغبةً منهم في التأكُّد من أنها لن تخضع لمنطقِ السياسة من أي طرفٍ كان. لقد أشهر الشعب الإيراني كل أسلحته المعنوية، والتفَّ حول نفسه كدرعٍ واقٍ؛ بحيث غدت إرادتُه السياسية هي الإفلات من قبضة السياسة.

وثمَّة قانون تاريخي يكمُن ها هنا: إذ كلما كانت إرادة شعب ما بسيطة؛ صارت مهمة السياسيين أشد تعقيدًا. ولا ريب أن سبب ذلك هو أن السياسة ليست كما تدَّعي، أي تعبير عن الإرادة الجماعية؛ فحقيقة الأمر أن السياسة لا تتنفَّسُ تنفُّسًا طبيعيًّا مُريحًا إلا حيث تكون هذه الإرادة الجماعيَّة مُشتَّتة ومترددة، ومشوَّشة وغامضة.

وهناك حلَّان اثنان، مُتاحان في الوقت الحالي؛ لإسباغ طابع سياسي على إرادة شعب يعبِّر عن رغبته في تغيير نظامه. أولهما الحل الذي طرحه «علي أميني»، رئيس وزراء الشاه السابق ورجل التوافق. ويفترض هذا الحل أن مدار الأمر هو محض الرفض لشخص الشاه وطريقته في الحكم، ومن ثم؛ فهو عنده رفضٌ عاطفي. لذلك يرى أن اختفاء الملك من المشهد، والتحول الليبرالي للنظام؛ سيؤديان إلى استئناف العملية السياسية بصورةٍ تلقائية. أما «كريم سنجابي»، زعيم الجبهة الوطنية، وأحد أفراد الفريق القديم لمصدق؛ فيرى أبعد من ذلك، وربما كانت رؤيته أوضح؛ إذ يرى أن إزاحة الملكية ينبغي أن تتم عبر استفتاء، وهي آليَّة لإزاحة الشاه قبل صدور نتيجة هذا الاستفتاء، الذي سيُشكِّك ابتداءً في السلطة التي وَرِثها الرجل قبل خمسة وثلاثين عامًا. كما أن حملة الاستفتاء ستكون فرصة لاستجلاب اعترافٍ كاسِح بالعمل السياسي والحزبي، قبل النهاية القانونية للملكيَّة؛ لينتهي الاستفتاء بنتيجة ليست محل شك، بطبيعة الحال؛ وهي أن تصير إيران بلا حاكم، وربما بلا دستور؛ وإن كان هناك مشهد سياسي قائم فعلًا. وتدل كل المؤشرات على أن الجبهة الوطنية لن تعطي الضوء الأخضر لتجربة أميني إلا إذا تعهَّد بتنظيم استفتاء حول الإبقاء على الملكية من عدمه.

لكن هذا الحل تكتنفه المصاعب، ذلك أن آية الله الخميني، ومن خلفه رجال الدين؛ يريدون تحقيق مطلب رحيل الشاه خارج إطار الأحزاب السياسية، وذلك بطريق وحيدٍ تُمثِّلهُ قوة الحركة الشعبية التي أطلقوها. فقد صنعوا، أو على الأقل دعموا؛ إرادةً جمعيَّةً قوية بما يكفي لخلخلة أشد الملكيَّات بوليسية في العالم. وهم لن يوافقوا، بالتأكيد؛ على استفتاءٍ قد يحوِّل هذه الإرادة إلى تحالُفٍ سياسي. لكن من المقطوع به أنه سيصير من الصعوبة بمكان رفض أي شكل من أشكال الاستشارة الانتخابية، وذلك باسم الإرادة الشعبية ذاتها. وربما لهذا السبب عمد آية الله الخميني، صباح اليوم؛ إلى اقتراح استفتاء آخر لن يجري إلا بعد رحيل الشاه تحت الضغط الوحيد، المرحَّب به؛ الذي تمثله الحركة الحالية. وهو استفتاء حول خيار تبني **«الحكومة الإسلامية»**.

وهكذا، ستجد الأحزاب السياسيَّة نفسها في موقفٍ شديد الحرج. فإما رفضوا هذا الخيار، وهو أحد الموضوعات الأساسية للحركة الشعبية (وبهذا يخسر السياسيون حتمًا، إذا ما عارضوا رجال الدين)؛ أو القَبول بأن تُغَلَّ أيديهم ابتداءً، إذ يوافقون على شكل للحكم ستكون حركتهم في إطاره، على أيَّة حال؛ جد محدودة. وقد لوَّح آية الله الخميني، في الوقت ذاته؛ بتهديديْن اثنيْن هما: الحرب الأهلية، إذا لم يرحل الشاه؛ والإقصاء من الحركة لأي شخص أو حزب قد يوافق، ولو مؤقتًا؛ على الإبقاء على الملكية التي فقدت سلطتها. وكان ذلك يعني بوضوح إعادة إطلاق شعار: «الإضراب عن الحياة السياسية».

لم يعد السؤال الملح اليوم هو ما إن كان «محمد رضا» شاه سيبقى، أم سيرحل؛ فهو راحِلٌ حتمًا، ما لم يحدث تحوُّل غير متوقَّع في المشهد. لكن صار السؤال يدور حول الشكل الذي ستتخذه هذه الإرادة السِّلميَّة والكثيفة، التي عبَّرت -قبل فترةٍ طويلةٍ- عن رفضها لحاكمها؛ لِتُجَرِّدَهُ بذلك من كل دفاعاته. أو بعبارةٍ أخرى؛ متى ستُفسح هذه الإرادة الجمعيَّة المجالَ للسياسة وكيف، وما إن كانت تريد ذلك أصلًا، وهل ينبغي عليها فعله.

تِلكُم هي المشكلة العملية لكل الثورات، والمشكلة النظريَّة لجميع الفلسفات السياسيَّة. ولهذا، فعلينا أن نعترف، في الغرب؛ بأننا لسنا في موضعٍ يسمح لنا بإسداء النصح للإيرانيين في مثل هذه المسألة.

تحدِّي المعارضة[1]

طهران.[2] مهَّد لنهاية الأسبوع في طهران حدثان مُهمَّان:

أولهما هو عمل المعارضة على تجميع صفوفها خلف آية الله الخميني. كان أحد الحلول، التي دعمها الأمريكيون؛ هو اقتراح تراجُع جزئي للشاه، يُرافِقُهُ تحول ليبرالي تدريجي للنظام، وهو ما كان يَفتَرِضُ تحييد أحزاب المعارضة الرئيسة. لكن في يوم الجمعة، كان زعيم الجبهة الوطنية، «كريم سنجابي»؛ قد قَبِلَ آخر الأمر بالنقطة الأولى، التي تضمَّنها تصريح آية الله الخميني؛ فأقرَّ بأن ملكيَّة الشاه غير شرعيَّة وغير قانونيَّة. ومن ثمَّ، صار سقوط العائلة المالِكة ورحيلها شرطًا مُسبقًا لأيِّ إعادة بناءٍ للحياة السياسية. وبحلول ليل الجمعة، لم يكن قد تبقَّى للشاه دعم يذكر، في صفوف المعارضة؛ ولو بصورةٍ غير مباشِرة، ومن ثمَّ؛ لم تعُد هناك فرصة للمناورة. فقد أعادت المعارضة للتو احتشادها في مواجهة الشاه.

وثانيهما هو اعتبار الصحافة السوڤييتية غير الرسمية، الصادرة في اليوم السابق؛ أن مطلب إقامة حكومة إسلامية في إيران هو مطلبٌ «خطير». وهو ما كان يعني، من جهة؛ تلميح الاتحاد السوڤييتي للأمريكيين بأنه ليس مُعارِضًا للحلِّ، حتى

(1) November 7, 1978: «Défi à l'opposition». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979). Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 704-706.

(2) اقترح ميشيل فوكو عنوانينْ مُختلفين لهذا المقال؛ هما: «مخاطر النظام العام»، و«نهاية الأسبوع في طهران». وهو يسرد أحداث يوميْ السبت الرابع والأحد الخامس، من شهر نوفمبر [١٩٧٨م]؛ إذ عمد الطلاب إلى إحراق وتدمير كل ما يرمز إلى سلالة بهلوي والغرب.

إن كان حلًّا «يَعتَمِدُ العنف»، إذ يكون من شأنه سد الطريق على المعارضة التي تجمَّعت خلف آية الله الخميني. ومن الجهة الأخرى، كان ذلك يعني أن الشاه قد يخوضُ صراعًا طويلًا وعنيفًا؛ إذ لن تحصل المعارضة على أي دعم، سواء من الاتحاد السوفييتي، أو من الديمقراطيات الشعبية [الشيوعيَّة] التي تملك السلاح، أو من دول الشرق الأوسط التي يرعاها الروس. لذا، فعشية الجمعة؛ كان الشاه هو الذي حصل على ضمانات دوليَّة، بينما كانت المعارضة معزولة تمامًا.

وهكذا، صار المتاح للشاه ورقة واحدة فقط؛ الاستفادة من المعطيات الدولية وتوظيفها على الساحة الداخلية.

وحلَّ الظرف المواتي خلال حوادث الشغب الطُّلَّابية. وثمة حديث مُستفيضٌ عن تلك الحوادث؛ فهل كانت مقصودة؟ ومن تسبَّب فيها؟ أكانت الأعيرة النارية التي أطلقها الجنود يوم السبت، أم تراجُعهم يوم الأحد هو السبب؟ وإني لتُزعجني لفظة «مقصودة»، لظني أنه ما مِن فعلٍ يقع بغير سببٍ يَحُثُّ عليه. إنما تكمن الإشكاليَّة في معرفة ما الذي قد يُحرِّض شخصًا على الفعل، ويجعله قابلًا للاستفزاز. لماذا انتقل الطلاب، خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه؛ إلى نمطٍ من الفعل مختلفٍ عمَّا كان مُتَّبعًا في الأشهر السابقة؟ نمط غير مرغوب -بلا ريب- من قِبَلِ أكثر قادة المعارضة راديكالية. ربما حدث ذلك بسبب التنافُس بين المجموعات الأكثر تسييسًا، وتلك الأكثر تديُّنًا؛ أو ربما بسبب هيمنة قدرٍ من التحدي، على عقول الجميع؛ بين نزعةٍ راديكالية ثوريَّة وأخرى إسلاميَّة، ترفض كلتاهما الركون إلى المصالحة، أو أنْ تكون أقل جرأة من الأخرى. علاوة على هذا، كان الوضع، الذي تطوَّر تطورًا كبيرًا؛ سببًا جعل تجمُّع الطلاب أكثر «قابلية للانفجار»، من المجتمع الذي كانوا يتظاهرون في صفوفه قبل بضعة أسابيع.

هكذا إذن اجتيحت طهران، من قِبَلِ الجيش؛ فصار ضباطه الكبار على رأس البلاد. فهل هو استيلاء عسكري على السلطة، مثلما توقَّع بعضهم؟ لا يبدو الأمر كذلك، على الأقل في الوقت الراهن.

باستقراء الواقع؛ فإن الجنرالات المستوزَرين لم يُجبِروا الشاه على تعيينهم، بل هم رِجالُهُ الذين رقَّاهم بنفسه، قبل فترةٍ طويلة؛ إلى أرفع المناصب.[1] وقد صرَّح الشاه، هذا الصباح؛ أنَّ هذه الحكومة الجديدة ستمُارِسُ مهامها لفترة قصيرة، وأن عمليَّة التحول الليبرالي ستُستأنف، تارة أخرى؛ بمجرد استعادة النظام العام. واعتقادي أن الكثيرين من الإيرانيين لا يُصدِّقونهُ، لكنها طريقته لتوجيه رسالة إلى المعارضة: «لقد قلتم إني فقدتُ شرعية البقاء في الحكم، وتريدون التحول الليبرالي بعد إزاحتي. لكنكم لن تستطيعوا ذلك بدوني، ليس فقط لأني أملك القدرة على البقاء؛ بل لأني أملِكُ شرعيَّة فرض النظام العام». وهي أيضًا طريقته ليقول للأمريكيين وحليفهم «علي أميني»: «لقد أردتم إزاحتي لصالح ابني الأحمق، لكنكم حتمًا تُدرِكونَ الآن أن وجودي ضروريٌّ، أكثر من أي وقتٍ مضى؛ للإشراف على التحول الليبرالي للنظام».

وفي عبارة واحـدة؛ فإن الجيش لم يتدخَّل اليوم بهدف القمع الكثيف للمعارضة، أو القضاء على الشاه وخصومِهِ؛ لمصلحة الجيش الخاصة. بل استخدمه الشاه للمناورة مُستهدِفًا شقَّ صف المعارضة إلى مُعسكرينِ مُتناحرينِ، حتى يخلق لنفسه وضعًا تفاوضيًّا مع جناح المعارضة المعتَدِل متى حان الوقت. وبمقدورنا أن نتخيَّل -وهذه تكهُّناتٍ صرفةٍ- أن حركة الشاه هذه إنما تمَّت بمساعدة الأمريكيين، الذين يُشرِفون إشرافًا ميدانيًّا على قطاعٍ كبيرٍ من جيشه؛ وإن كان هدفها هو مواجهة الرئيس كارتر،[2] ومن يرون ضرورة إزاحته.

---

(١) المقصود المستوزرين في حكومة الجنرال «غلامرضا أزهاري» العسكرية، التي عينها الشاه في نوفمبر ١٩٧٨م. (المترجم)

(٢) عُرِفت فترة حكم الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» (١٩٧٧-١٩٨١م) بأنها كانت استعادة لأجندة حقوق الإنسان، لكنَّ ولايته بهذه الأجندة لم تكن سهلة بسبب طبيعة الميزان الاستراتيجي في المنطقة؛ إذ شهدت نهاية السبعينيات تطورات كبرى أحدثت تغيرات هيكليَّة وقيميَّة واستراتيجيَّة على رأسها غزو الروس لأفغانستان ثم الثورة الإيرانية، التي أسقطت حليفًا استراتيجيًّا قديمًا للأمريكان. وفي الوقت الذي كان كارتر «الديمقراطي» يؤكد فيه ضرورة تغيير الشاه لسياساته في مجال حقوق الإنسان، كان مستشارون مخضرمون أمثال «هنري كيسنجر» و«زبيغنيو بريجنسكي» ينظرون إلى المنطقة بعيون استراتيجيَّة تغُض الطرف عن ملف حقوق الإنسان برمته، في سبيل الحفاظ على المصالح الأمريكية؛ لا سيما بعد الصراع الذي أنهك المنطقة، و«خُتِمَ» بتوقيع اتفاقيَّة كامب ديفيد. ←

لكن لن تؤتي هذه الخطوة أُكلَها إلا إن عمَّ الهدوء أنحاء البلاد، كحال طهران هذا الصباح. يحوز الجيش، أو على الأقل قسمه الأشد ولاءً للشاه؛ القدرةَ على احتواء المدن الكبرى، لكن هل ينطبِقُ ذلك على باقي البلاد؟ ولا أعني مُجرَّد الإقليم على امتداده، بل جماهير السكان أيضًا؛ أيْ العمال، والموظفين الحكوميين، وتجار البازار المضربين منذ شهور، الذين يتسبَّبون -تدريجيًّا- بشلل قطاعات متنوِّعَةٍ من المجتمع كل يوم. في هذه الحالة سيجِدُ الشاه نفسه في مواجهة علماء الدين والملَّالي، وآية الله الخميني؛ الذي لا يمكن تجاوُزُه بسهولة. فهؤلاء يستطيعون الاستمرار في تحريك المقاومة، التي قد تَتَّخِذُ أشكالًا أخرى كثيرة، غير الشغب؛ أشد فاعليَّة. لقد ردَّ الشاه على الإضراب السياسي الكبير، الذي وقع خلال الأسبوع الماضي، واستهدف إنهاءه بعودةٍ صاخبة؛ فعاود الظهور بوصفه قائدًا للنظام العام الذي يستطيع إعادته إلى الشوارع. لكنَّهُ لن يستطيع فرضه على المجتمع، بطبيعة الحال؛ وهو ما يعني أن زمام الجيش قد يُفلِتُ من يديهِ. وربما قرَّر ضابط كبير، ذات صباح؛ التحالُف مع الحركة الدينية، التي لا تنوي -بغير ريب- الاستسلام للشاه، مهما تخندَقَ خلف دباباته واحتمى بها. إن الحركة الدينية، التي استوعَبَت المعارضةَ السياسيةَ بجُملتها؛ تستطيع -في نهاية المطاف- كسر الوحدة الظاهرة للجيش، إن تحالَفَت مع أحد فصائله. إن فرض النظام العام يطوي -لا محالة- مخاطِرَ من هذا القبيل.

ولم تكن الثورة الإيرانية في نهاية الأمر فألًا حسنًا على الرجل؛ إذ تحطَّمت ولايته تحت وطأة أزمة الرهائن الأمريكيين (١٩٧٩-١٩٨١م)، الذين احتُجزوا في سفارة الولايات المتحدة في طهران، وزاد الطين بلَّة رفض كارتر المستميت الاستجابة لمطالب المحتَجِزين؛ بتسليم الشاه وإعادة أمواله إلى إيران. وقد كانت هذه الأزمة هي السبب المباشر في تراجُع شعبيته وهزيمته في انتخابات عام ١٩٨١م أمام «رونالد ريغن». (المترجم)

ميشيل فوكو يَرُدُّ على قارئة إيرانية[1]

لم تقرأ السيدة «آتوسا هـ.» المقالة التي انتقدتْها في رسالتها جيدًا.[2] من المقطوع به أن من حقها انتقادي، لكن ما كان ينبغي لها أن تَنْسِبَ إليَّ القول بأن «الروحانية الإسلامية ستُفيد من تعثُّر الدكتاتورية؛ لتحل محلها». ذلك لأنه لما كان بعض الإيرانيين قد قُتِل جرَّاء الاحتجاجات، التي رفعت شعار: «**الحكومة الإسلامية**»؛ فإن واجبنا الأساسي يصيرُ هو التساؤلُ عن المحتوى الذي طواه الشعار، وماهية القوَّة التي تحركه. وعلاوة على ذلك، فقد أشرتُ إلى عددٍ من العناصِر بدت لي غير مطمئنة. ولو لم يكن في رسالة السيدة غير خطأ القراءة؛ لما رددتُ عليها، لكنها حوت أمرين **لا يمكن تجاهلهما**:

أولهما أن ثمة خلط بين جميع الاتجاهات، وجميع الأشكال، وكل الإمكانات، التي يطويها الإسلام؛ وصبَّها في بوتقةٍ واحدةٍ من الازدراء، تمهيدًا لرفضها تحت لافتة عمرها آلاف السنين؛ هي: «التعصُّب».

وثانيهما الاعتقاد السائد بأنَّ أيَّ اهتمام، يُبديه غربيٌّ بالإسلام؛ لابد أن يكون باعثُه ازدراء المسلمين (فماذا عن الغربي الذي يزدري الإسلام؟). إن إشكاليَّة

(1) November 13-19, 1978: «Réponse de Michel Foucault à une lectrice iranienne». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des sciences humaines. Paris: Gallimard, 1994: 708.

(٢) نشرت صحيفة «لو نوفيل أوبزرفاتور»، في عددها رقم سبعمئة وثلاثين [نوفمبر ١٩٧٨م]؛ رسالةً لقارئة إيرانية تعيش في باريس تأسَّفت فيها من كونِ ميشيل فوكو، في مقاله المعنوَن: «بم يحلم الإيرانيون»؛ قد «بدا متأثرًا بالروحانيَّة الإسلاميَّة، التي ستُفيد اليوم من تعثُّر دكتاتورية المصالح الشرسة لتحل محلها».

وجود الإسلام، بوصفه قوة سياسيَّة؛ هي قضية تأسيسيَّة من قضايا عصرنا، وستظلُّ كذلك لسنوات قادمة؛ لذلك كانت أول مقتضيات مقاربتها، ببعض الذكاء؛ هي عدم مزج ذلك بالكراهية ابتداءً.

الثورة الإيرانية تنتشر على أشرطة الكاسيت(١)

طهران.(٢) في إيران، يُحدِّدُ تقويم الشهور مواعيدَ فعاليّات السياسة. ففي الثاني من ديسمبر ستبدأ شعائِر شهر المحرَّم، وفيها ذكرى استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، إذ تُمارَس طقوس هائلة للتكفير عن إثم وفاته (وقد جالت مواكب الضاربين أنفسهم، بالسلاسل والسياط؛ قبل فترة قريبة). إن الإحالة إلى هذا الشعور بالإثم، بصورة تذكِّرنا كذلك بالمسيحية؛ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتمجيد الشهادة المرجوَّة ما دامت في سبيل قضيَّةٍ عادِلة. آنئذ تحين اللحظة التي تصير فيها الحشود جاهزةً للتقدُّم صوب الموت في سَكْرَةِ الرغبة في التضحية. وفي هذه الأيام، يصير ديدن الشيعة الخروج الحاد عن المألوف.

يُقال إن النظام العام تجري استعادته تدريجيًا في إيران، لكن الحقيقة هي أن الجميع يحبِسونَ أنفاسهم. وقد أعرب مستشار أمريكي عن أمله؛ قائلًا: «إذا صمدنا في شهر المحرَّم؛ فسيكون بمقدورنا إنقاذ كل شيء، وإلا...». أما وزارة الخارجية؛ فتترقَّبُ هي الأخرى -بحذرٍ- حلول ذكرى الإمام الشهيد.

---

(1) November 19, 1978: «La révolte iranienne se propage sur les rubans des cassettes». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 709-713.

(٢) دُوِّنَ هذا المقال خلال زيارة ميشيل فوكو الثانية إلى إيران [نوفمبر ١٩٧٨م]. وكانت الصحافة العالميَّة قد انتشرت في عبادان، بحثًا عن طبقةٍ عامِلَةٍ منظَّمةٍ قد يكون بيدها القرار؛ وذلك بعيد خيار الجيش، الذي يُخشى أن الغرب كان ينتظر منه أن يأتي بالحل.

ما الذي يتعيَّن عمله في الفترة الفاصِلَة، بين مظاهرات رمضان في سبتمبر ومظاهرات محرم الوشيكة؛ مع اقتراب أجل الحداد؟ بدأ «شريف إمامي» بالحل الناعم، إذ أطلَقَ سراح السجناء، وسمح بحريَّة العمل للأحزاب، وألغى الرقابة؛ أي أنه يحاوِل خفض التوتُّر السياسي، لئلا تتغذَّى منه الحُمَّى الدينية. ثم، وعلى حين غِرَّة؛ جاء الحل الحاد في الخامس من نوفمبر. إذ وصل العسكريون إلى السلطة، وانتشر الجيش في البلاد بقوَّة كافية؛ ليتسنَّى له الحد من تداعيات شهر المحرَّم، لكن مع لزوم قدرٍ دقيقٍ من الحيطة والحذر، لئلَّا يئول الأمر إلى انفجار اليأس والإحباط العارم.

وبالطبع، يبدو أن هذا التغيير الإجرائي قد اقتُرِحَ على الشاه، أو فُرِضَ عليه؛ بواسطة جماعة ضغط صغيرة، ربما تتكوَّن من: الجنرال «غلام علي أويسى»،[1] وصناعيين مثل «الأخوين خيَّامي» (في مجال صناعة السيارات)،[2] و«آل رضائي» (بالفارسيَّة: خانواده رضايى؛ في مجال التعدين)،[3] وسياسيين مثل «فتحالله

---

(١) عسكري إيراني، وآخر قائد عام لجيش الشاه الإمبراطوري (١٩١٨-١٩٨٤م)؛ اشتهر بأنه «جزار إيران» وأقوى العسكريين الإيرانيين في العصر الحديث، ربما إلى ما قبل بزوغ نجم «قاسم سليماني». وقد استقال في يناير ١٩٧٩م تحت ضغوط، واستقر في فرنسا قبل انتصار الثورة مباشرة. وقد اغتيل للحيلولة دون قيادته لقوات «الثورة المضادة»، التي تكوَّنت من بقايا فرق النخبة للجيش الإمبراطوري؛ وتمركزت في ثماني قُرى تُركيَّة وخمس قواعد سريَّة داخل إيران. وقد كان اغتياله أحد أهم أولويَّات النظام الثوري، نظرًا لعلاقاته الوثيقة بعلماء لهم وزنهم أمثال شريعتمداري وأبو القاسم الخوئي. (المراجع)

(٢) هما أحمد خيَّامي (١٩٢٤-٢٠٠٠م) وشقيقه الأصغر محمود خيَّامي (المولود ١٩٣٠م)؛ وهما من روَّاد التصنيع في إيران إبَّان الستينيَّات والسبعينيَّات. وقد بلغ إنتاج شركتهما الوطنيَّة للسيارات، الذي دُشِّن منتصف الستينيات تقريبًا؛ مئة ألف سيارة بحلول عام ١٩٧٩م، بنسبة مكوِّن محلي بلغت حوالي النصف، وعدد عاملين تجاوز العشرين ألفًا في طهران ومشهد وتبريز. وقد غادرا إيران مع الثورة، وتوفي أحمد ودُفِن في لوس أنغيليس بالولايات المتحدة، بينما ما زال محمود يُمارس تجارة السيارات مُتنقلًا بين بريطانيا وأمريكا وفرنسا، فضلًا عن نشاطه الثقافي والخيري. (المراجع)

(٣) واحدة من أغنى العائلات وأكثرها نفوذًا في إيران قبل الثورة. وقد تكوَّنت من أربعة إخوة: علي ومحمود وعباس وقاسم رضائي، الذين استعملوا ميراثهم الضئيل من أبيهم لبناء واحدة من أكبر إمبراطوريَّات الأعمال في إيران والشرق الأوسط، آنذاك. وقد تمركزت تجارتهم في ثلاثة مجالات رئيسة: دور السينما والتبغ والتعدين. وقد تجاوزت عائدات أعمالهم السنويَّة ثلاثمئة مليون دولار بحلول عام ١٩٧٥م. وقد فروا جميعًا عشيَّة انتصار الثورة، وما زالوا يعيشون في المهجر، عدا قاسم؛ الذي توفي في ٢٠١٤م. (المراجع)

فرود» (عمدة أسبق لبلدية طهران)، و«عباس مسعودي» (من بقايا انقلاب عام ١٩٥٣م).[1] لكن القرار المفاجئ بتغيير «الفريق العامِل»، استعدادًا لاستقبال شهر المحرم «استقبالًا صلبًا»؛ كان سببُه مجمل وضعِ البلاد، وتحديدًا الإضرابات التي امتدَّت، من محافظةٍ إلى أخرى؛ كالنار في الهشيم. ومن ذلك إضراب القطاع النفطي ومصانع الصلب، وإضراب مصانع مينو (بالفارسيَّة: كارخانِه مينو)؛ والنقل العام، والخطوط الجويَّة الإيرانية، وكذا إضراب المصالح والإدارات العمومية. بل إن أكثر الأمور إثارة للدهشة كان توقُّف العمل في مصلحتي الجمارك والضرائب، وهو الأمر المتعذَّر أصلًا؛ نظرًا لعائداتها الماليَّة التي تزداد عشرة أضعاف، أو مائة ضعف؛ بسبب المعاملات الجانبية والرشاوى. لقد بدا كما لو أن الفساد نفسه قد شرع في الإضراب داخل نظام الشاه.

ورَغِبْتُ في التعرف على هذه الحركة، التي يُخفي المنعُ والتكتُّم اتساعَ نطاقها. قابلتُ في طهران «أصحاب الحظوة» في الإضراب؛ وهم طاقم الخطوط الجوية الإيرانية. كانت شقق استراحتهم أنيقة، أثاثُها من خشب الساج، والمجلَّات الأمريكية تملأ طاولاتِها. ثم، جنوب طهران بآلاف الكيلومترات، التقيتُ «الأقوياء»؛ وهم عمال النفط. ما مِن أوروبيٍّ لم يحلُم برؤية عبادان وملايينها الستة من براميل النفط، التي تتدفَّق يوميًّا؛ وأكبر معمل لتكرير البترول في العالم. لقد دُهشنا لضخامتها، لكننا وجدناها قديمة الطراز، ومحصورة بين الصفائح الفولاذيَّة المتموِّجة، ومبانيها الإدارية ذات النمط المعماري البريطاني بطابعه نصف الكولونيالي ونصف الصناعي. ووراء مصافيها ومداخنها يمكن رؤية قصر حاكم المستعمرات، الذي خضع لترميم مُتَقَشِّفٍ أنجزته منشأة الغزل الكبرى في مانشستر. أما كونها مؤسسةً قويَّة، محترمةً وغنيَّة؛ فهذا لا ينفي أنها تشتَهِرُ بالبؤس الهائل، الذي تسبَّبت به في هذه الجزيرة من الرمال الواقعة بين نهريْن باهتيْ المنظر. بدأنا جولتنا في محيط المصنع، حيث يقع ما يشبه حيَّ عمال المناجم

---

[1] سياسي وصحافي إيراني شهير ومؤسس صحيفة «اطلاعات». (المراجع)

في مناطق خط الاستواء، ثم تظهر بسرعة الأحياء الفقيرة، حيث يركض الأطفال بين هياكل الشاحِنات وأكوام الخُردَة المعدنيَّة، لينتهي بنا المطاف إلى جحورٍ من الطين المجفَّف المغمور بالقاذورات. هنا هُنا لا يصرخُ الأطفال الرابضون. ولا يتحركون. ثم يتلاشى كل شيءٍ في واحةٍ من النخيل تؤدي إلى الصحراء، ذلك هو الموقِع والخلفيَّةُ التي ترقد فيها إحدى أعظم ثروات العالم.

وثمة أوجه شبه كامِنة، بين لقاءاتنا بالمضربين من الخطوط الجوية الإيرانية، في غرف معيشتهم الراقية؛ ولقاءاتنا بأهل عبادان خفيةً، في مواعيدَ سريَّة. أهم أوجه الشبه هذه هي أنهم كانوا جميعًا في إضرابٍ للمرة الأولى. وذلك لأن الفئة الأولى لم ترغَب بالإضراب من قبل، أما الثانية فلأنها لم تملك يومًا الحق في الإضراب. كذا، تربط كل هذه الإضرابات ربطًا مباشرًا بين الدوافع السياسية وبين المطالب الاقتصادية. لقد زادت رواتِبُ عمال المصفاة بنسبة خمسة وعشرين بالمئة في مارس الماضي، وبعد بداية الإضراب، في الثالث والعشرين من أكتوبر؛ حصلوا، دون كثير نقاش؛ على مزايا اجتماعية، ثم عشرة بالمئة إضافة لرواتبهم، ثم عشرة بالمئة أخرى سُميت «علاوات متعلِّقة بالمصنع» (يقول ممثل للإدارة إنه «كان لا بد من إيجاد تسمية لتبرير هذه الزيادة»)، ثم مُنحوا مائة ريال إيراني يوميًّا لتناول طعام الغذاء. ويوحي الوضع بأن الإدارة قابِلة للاستمرار بتلك الزيادات، إلى أجلٍ غير مسمًّى. لكن، وعلى أيَّة حال، وعلى غرار طيَّاري الخطوط الجوية الإيرانية، الذين لم يكونوا يَشكون من رواتبهم؛ فإنهم يريدون إلغاء الأحكام العرفية، وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، وحلَّ السافاك -كما صرَّح بعضهم- وإدانة المسئولين عن النهب والتعذيب.

لا يدفع هؤلاء وأولئك بمطلب رحيل الشاه، أو «نهاية النظام» (وهو ما بدا لي غريبًا آنذاك)؛ مع أنهم يؤكدون رغبتهم في ذلك، فهل يفعلون ذلك بدافع الحذر؟ ربما... حقيقة الأمر أنهم يعدون هذا المطلب، الأول والأخير، متروك للشعب مُجتمعًا، ليصوغه ويفرضه متى حان الوقت. ويكفي -في الوقت الراهن- أن

داعيةً طاعنًا في السنِّ ينوب عنهم في الإصرار عليه بلا كلل، من منفاه في پاريس. وهم يعرفون اليوم أنهم يشاركون في إضراب سياسي، وأنهم يفعلون ذلك تضامُنًا مع البلد برمته. وقد أوضح لي طيَّار إيراني أنه يعد نفسه مسئولًا عن سلامة الركَّاب خلال الرحلات التي يقود فيها طائرته، وإذا كان اليوم لا يقود هذه الطائرة؛ فهذا لكونه معنيٌّ بسلامة البلاد. أما في عبادان، فيقول العمال بأن الإنتاج لم يتوقَّف تمامًا، وأنه عاد الآن جزئيًّا لتلبية احتياجات البلد الضرورية. لكن هناك ثمانيًا وثلاثين ناقِلةً تنتظرُ في الخليج، وسيطول بها الانتظار. فهل هذه التصريحات مُجرَّد إعلان مبادئ؟ لا ريب في ذلك. لكنها مع ذلك مهمة عند هذه الحركات المتفرِّقة؛ إذ لا تشكل إضرابًا عامًّا، لكن كل واحدة منها تعزو لنفسها مهمةً وطنية.

وهذا هو سبب سهولة التئامها. إذ أعلن التقنيون وعمال النفط في عبادان تضامُنهم مع الإضراب. وفي الرابع من نوفمبر، انضمَّ للإضراب عمالٌ من شركة «إيران نيپون Iran Nippon»، ومن الشركة الإيرانية اليابانية للبترول، وعمال مجمع البتروكيماويات؛ انضموا إلى عمال المصفاة في اجتماع مشترك. ومن هنا أيضًا تأتَّى استمرار المطالبة برحيل الأجانب، سواء أكانوا فنيين أمريكيين، أو مضيفات طيران فرنسيات، أو أيدٍ عامِلَةٍ أفغانية؛ وهو ما يعبِّر عنه مطلب: «نريد تأميم بلادنا». أما مشكلة اللحظة الراهنة؛ فهي كيف يمكن تحويل هذه الإضرابات، ذات الحمولة القوميَّة؛ إلى إضراب عام؟ فما مِنْ حزبٍ يمتلِكُ سُلطةً للاضطلاع بذلك (لم يفشل الإضراب العام، الذي دعا إليه بعض السياسيين في الثاني عشر من نوفمبر، مثلما قيل؛ لأنه ببساطة لم يقع!). وتستند الصلابة الاستثنائية للحركة في المستويات المحليَّة -من جهةٍ- على بعض التنظيمات السريَّة المتفرقة، التي تتحدَّر من حركات ثوريَّة إسلامية أو ماركسية الطابع، مثل «الاتحاد الشيوعي»؛ وذلك كما رُوي لي في عبادان. أما نقطة التحامها -من الجهة الأخرى- فتقع خارج البلاد، وخارج التنظيمات السياسيَّة، وخارج إطار أي إمكانيَّة للتفاوض؛ إنها في آية الله الخميني، يُجسِّدها شِدَّة إصراره، علاوة على الحب الذي يُكِنُّهُ له كل إنسان مُنفردًا. وقد أبهرني تعليق طيار البوينغ، مُتحدثًا نيابة عن رفقائه؛ إذ قال

لي: «في فرنسا شخص هو الكنز الأثمَن في إيران منذ قرنٍ من الزمان، ويتعيَّن عليكم حمايته»؛ كانت نبرته واثقة محمَّلةً بالإصرار.

أما أكثر ما يدعو للإعجاب فهو ما قاله لي المضرِبون في عبادان: «نحن لسنا مُتدينين مُتزمِّتين».

- فبمن تثِقون إذن؟ هل تثِقون بحزبٍ سياسي معين؟

- لا، لا نثِقُ بأيِّ حزبٍ.

- أبشخص محدَّد؟

- لا، لا نثِقُ بأحدٍ باستثناء الخميني... وحده الخميني.

لقد ألزَمَت حكومة العسكريين نفسها بمهمةٍ رئيسة؛ هي وقف الإضرابات. كان ذلك مخرجًا تقليديًّا لكنَّه غير مأمون؛ فقد صار السافاك، وهو جهاز الشرطة السياسيَّة الذي كان عارًا على النظام؛ أسوأ هزيمة مُنيت بها هذه الحكومة. إذ أرسل عناصره، الذين استعادوا مهنتهم الوحشيَّة القديمة؛ إلى كل مكان لإشعال الحرائق وإثارة القلاقل وإضرام المعارك الجانبيَّة، ليُنسَب كل شيء بعدها إلى المضربين والمتظاهرين، مع ما يطويه ذلك من خطر؛ في ظل احتمال أن يؤدي هذا الاستفزاز إلى إشعال النار مُسببًا انفجارًا حقيقيًّا كالذي وقع في العاصمة طهران. كذلك تدخَّل الجيش في مصفاة عبادان مخلِّفًا جرحى، بينما تمركزت عرباته المدرَّعة خلف المصانع. ثمَّ ولج الجنود منازل العمال، وإذا كانوا أجبروهم على الخروج إلى المصفاة؛ فكيف تُراهم سيجبرونهم على العمل؟

وخلال شهرين، هما عُمْر حكومة إمامي؛ كانت الصحف التي استعادت حريتها تنشر الأخبار بشكل يوميٍّ؛ فـ«تشعل» نيران الإضرابات في كل مكان، الواحد تلو الآخر. وكان على الجيش أن يُعاوِدَ فرض الرقابة، وردَّ الصحافيون برفض إصدار الصحف. فقد كانوا يدركون جيدًا أنهم سيتركون المهمة لشبكة اجتماعيَّة كاملة، لنشر المعلومات والأخبار؛ وهي شبكةٌ تدين بتطورها لخمسة

عشر عامًا من التعتيم الذي فرضه النظام. شبكة قوامها الهاتف، وأشرطة الكاسيت،[1] والمساجد والخطب، ومكاتب المحاماة ودوائر المثقفين.

وقد استطعتُ الاقتراب من إحدى هذه «الخلايا الأساسية» للمعلومات، ورأيتُ كيف تعمل. كان ذلك بالقرب من أحد المساجد في عبادان، حيث الأثاث رثٌّ؛ ينم عن فقر المسجد باستثناء بعض السجاد. أما الملَّا، فيتكئ على مكتبةٍ من الكتب الدينية، محاطًا بحوالي اثني عشر من الأتباع، وبقُربِه هاتف قديم لم يتوقَّف عن الرنين، في مكالمات كانت موضوعاتها؛ مثل: لقد توقَّفت العمليَّات في الأهواز، أو لقد سقط العديد من القتلى في لاهيجان؛ وغير ذلك. وفي عين اللحظة، حين كان مدير العلاقات العامة في «شركة النفط الوطنية الإيطاليَّة» يُلفِّق للصحافيين روايةً عن «الحقيقة الدولية» للإضراب (الاستجابة للمطالب الاقتصادية، وغياب أي مطالب سياسية، وعودة العمل)؛ سمعتُ الملَّا ينسج من جهته «الحقيقة الإيرانية» حول الحدث نفسه؛ إذ لا مطالب اقتصادية، بل كلها أهداف سياسيَّة.

يُقال إن ديغول استطاع مواجهة انقلاب الجزائر العاصمة، بفضل أجهزة الترانزستور. وإذا ما انهار نظام الشاه، فسيكون ذلك بسبب أشرطة الكاسيت. فقد صارت الأشرطة -في نهاية المطاف- أداةً مضادَّة لنقل المعلومة، بامتياز. وقد قصدتُ مقبرة طهران يوم الأحد الماضي، وهو المكان الوحيد الذي تسمح الأحكام العرفيَّة بالتجمُّع فيه. هنالك وقف الإيرانيون يحملون اللافتات وأكاليل الغار، وهم يلعنون الشاه. ثم جلسوا إذ وقف منهم -فجأة- ثلاثة رجال، بينهم رجل دين؛ ليشرعوا بالحديث بكثافة شديدةٍ تكاد تقترِبُ من العنف. ولحظة خروجهم، كان ما لا يقِلُّ عن مائتيْ جندي يُعيقون البوابات -على سيارات مدرعة ودبابتين، وهم يحملون بنادق رشاشة- فاعتقلوا الخطباء، وكل من كانوا يحملون أجهزة التسجيل الصوتية.

---

(١) كانت هذه الخطب تُبَثُّ من شرفات المنازل عبر آلات التسجيل، في تحدٍّ لحظر التجوال المفروض.

ويمكن العثور على أشرطة الكاسيت المسموعة، لأشهر الخطباء؛ على أبواب معظم مساجد المحافظات، ومقابل القليل من الريالات. بل وقد يتكرَّر، في الشوارع المزدحمة؛ مشهد أطفالٍ يسيرون وهم يحملون أجهزة تسجيل، تتفجَّرُ منها تلك الأصوات القادمة من قم، ومشهد، وإصفهان؛ وهي تزاحم أصوات السيارات، فلا يضطر المارَّة للتوقُّف للاستماع إليها. ومثلها مثل النيران؛ تشتَعِلُ الإضرابات، وتخفُت، ثم تعاود الاشتعال من جديد، قبل ليالي شهر المحرَّم؛ من مدينة إلى أخرى.

الزعيم الأسطوري لثورة إيران(١)

طهران.(٢) يوشك عام الاضطرابات في إيران على النهاية، لكنَّ بوصلة السياسة بالكاد تحرَّكت خلاله. فقد استُبدِلَت حكومة سبتمبر، شبه الليبرالية؛ بحكومة شبه عسكرية في شهر نوفمبر. وفي واقع الأمر، تأثرت البلاد كلها بما يحدث؛ المدن والقُرى، والمراكز الدينية، والمناطق النفطيَّة، والبازارات، والجامعات، والموظفون، والمثقفون. بل إن أصحاب الحظوة والامتيازات أنفسهم قد غادروا السفينة قبل أن تغرق. فاليوم، صارت إنجازات قرن كامل، في الحياة الإيرانيَّة؛ محلَّ مُساءلة: التنمية الاقتصادية، والهيمنة الأجنبية، والتحديث، والأسرة المالِكة، والحياة اليومية، والتقاليد والأعراف؛ كلها مُنيَت بالرفض العام.

لا أُجيد الاستشراف، ولا أفلح كثيرًا في الدفع بالماضي للتنبؤ بالمستقبل. ومع ذلك، أود أن **أفهم ما يحدث** الآن، لأن الحدث لم يكتملْ ولا يزال النرد يتدحرج. ربما كان هذا هو جوهر عملِ الصحافيِّ، لكني في الحقيقة لستُ سوى مبتدئ في هذا المجال.

لم تخضع إيران لاحتلال قوى كولونياليَّة قَطُّ، فقد كانت منطقة نفوذٍ تقاسمها الإنكليز والروس إبَّان القرن التاسع عشر، تبعًا للسائد آنذاك قبل العصر الكولونيالي. ثم حلَّ عصر النفط، ووراءه الحربان العالميَّتان، والصراع في الشرق

(1) November 26, 1978: «Le chef mythique de la révolte de l'Iran». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 713-716.

(٢) كان العنوان الذي اقترحه ميشيل فوكو للمقال هو: «جنون إيران».

الأوسط، والمواجهات الكبرى في آسيا. وفي قفزة واحدة، انتقلت إيران إلى وضع ما بعد كولونيالي؛ لتدور في فلك الولايات المتحدة، وتبدأ تبعيَّة طويلة الأمد دونما وجود كولونيالي مباشر؛ أي أن الهياكل الاجتماعية للبلاد لم يَجْرِ تدميرها جذريًّا، بل لم تتعطل كليًّةً بفعل تدفُّق عائدات النفط. لقد أثرى ذوو الامتيازات من هذه العائدات بالتأكيد، وانتشرت المضاربة، وسمحت بإعادة تجهيز الجيش بالمعِدَّات، لكنها لم تخلق أي قوى جديدة في المجتمع. ربما أُضعِفَت البرجوازية في البازارات، وقُوِّضت المجتمعات الريفيَّة بسبب الإصلاح الزراعي؛ لكنهما صمدتا رغم تداعيات التبعيَّة لأمريكا، والتغييرات التي أحدثْتها؛ وبما يكفي لمقاومة النظام المسؤول عن ذلك الوضع.

لكن هذا الوضع نفسه كان له أثر عكسي على الحركات السياسية؛ فقد صمدت هي الأخرى في ظل التبعية، لكنها لم تتمكَّن من البقاء كقوى اجتماعيَّة حقيقية، سواء بسبب قمع النظام، أو بسبب خياراتها الخاصة. فقد ارتبط الحزب الشيوعي الإيراني [تودِه] بالاتحاد السوڤييتي، وتورَّط في احتلال أذربيجان تحت حكم ستالين؛ ودعم النزوع «القومي البرجوازي» في عهد مصدق دعمًا مثيرًا للدهشة. أما الجبهة الوطنية، وهي وريثة مصدق وحاملة مبادئه؛ فلم تحرك ساكنًا طيلة خمسة عشر عامًا في انتظار التحول الليبرالي، الذي لم تؤمن بإمكانية تحقيقه دون موافقة الأمريكيين. وفي هذه الأثناء، استعجل بعض كوادر الحزب الشيوعي، وتحوَّلوا إلى تكنوقراط موال للنظام؛ فقد تخيَّلوا أن الحكومة الاستبداديَّة ستعمل على تنفيذ السياسات الوطنيَّة. باختصار، كانت الأحزاب السياسية ضحية «الديكتاتورية التابِعة» التي يمثلها نظام الشاه. وباسم الواقعيَّة، لَعِبَ بعضهم بورقة الاستقلال، ولعب الآخرون بورقة الحرية.

كذا، أدى غياب قوى احتلال كولونياليَّة، ووجود جيش وطني، وجهاز شرطة ضخم؛ إلى انعدام فرصة تكوين تنظيمات سياسيَّة وعسكريَّة تقود النضال لإنهاء الوجود الكولونيالي، وتكون في موقع مناسب حين يحين وقت التفاوض على

الاستقلال، وفرض مغادرة القوى الكولونياليَّة؛ مثلما حدث في بلدان وأقاليم أخرى. إن رفض النظام في إيران هو ظاهرة اجتماعيَّة كاسحة. ولا يعني ذلك أنه رفض مُبهم، أو عاطفي، أو غير واعٍ بذاته، بل على العكس من ذلك؛ نراه ينتشرُ انتشارًا فعَّالًا فريدًا، من الإضرابات إلى المظاهرات، ومن الأسواق إلى الجامعات، ومن المنشورات إلى الخطب؛ عن طريق التجار، والعمال، والمتديِّنين، والمعلِّمين، والطلاب. لكن ما من حزب، أو شخصية، أو أيديولوجيَّة سياسيَّة يمكنها أن تُباهي بتمثيل هذه الحركة في الوقت الحاضر. ولا أحد يمكنه التظاهُر بقيادتها. إنها ظاهرة ليس لها نظير في السياسة، ومن ثم؛ لا يُمكن التعبير عنها سياسيًّا.

لكن المفارقة هي أنها تُشَكِّل، مع ذلك كله؛ إرادة جماعية شديدة التوحُّد. ومن المدهش شهود هذا البلد الممتد، بسكانه المتوزِّعين على طول هضبتيْن صحراويتيْن شاسعتين، وقدرته على تبنِّي أحدث التطورات التقنيَّة، لتتعايش جنبًا إلى جنب مع أشكال جامدة من الحياة تعود لقرنٍ من الزمان؛ يُبرهِن رغم ذلك كله، ورغم كبح الرقابة وغياب الحريات العامة؛ على مثل هذه الوحدة الهائلة. إذ يُظهر الاحتجاج نفسه، ويُعبِّر عن الإرادة نفسها؛ لدى الطبيب في طهران، كما الملَّا في الريف، أو عامل النفط، أو ساعي البريد، أو الطالبة التي ترتدي التشادور. لكن هذه الإرادة تطوي أمرًا محيِّرًا؛ إنه تمحورها حول المطلب ذاته، وهو مطلب واحد شديد الوضوح: رحيل الشاه. لكن هذا المطلب هو كل شيء عند الشعب الإيراني؛ فهو نهاية التبعية، واختفاء الشرطة، وإعادة توزيع عائدات النفط، ومحاربة الفساد، وإعادة إحياء الإسلام، ونمط جديد للحياة وللعلاقات مع الغرب، ومع الدول العربيَّة، ومع آسيا، ...إلخ. إن الإيرانيين يُريدون كل شيء، وهو ما يُذكِّرنا بالطلاب الأوروبيين في الستينيات؛ لكن الغاية هنا ليست «تحرير الرغبات»، كما كان الحال في أوروبا؛ بل هي الانعتاق من كل أشكال ورموز الهيمنة الكونيَّة على بلدهم وفي حياتهم اليومية. وهي الهيمنة التي بسطت ظلها على الأحزاب السياسية -الليبرالية أو الاشتراكية، الموالية لأمريكا؛ أو المستوحاة

من الماركسية- بل وعلى المشهد السياسي نفسه، إذ يعتبرون كل مفردات ذلك المشهد كانت -ولا تزال- عميلة لهذه الأشكال من الهيمنة.

وها هنا يتبلور دور الشخصية شبه الأسطورية لآية الله الخميني. ولا يمكن لأي رئيس دولة، أو زعيم سياسي؛ أن يدَّعي اليوم بأنه يحظى بمثل هذا التعلُّق الكثيف بشخصه، حتى إن حظي بدعم جميع وسائل الإعلام في بلاده. ولا شك في أن هذه الصلة الجماهيريَّة بشخص الخميني **مصدرها ثلاثة أمور**؛ هي:

- **غيابه**؛ فهو يعيش في المنفى منذ خمسة عشر عامًا، ولا يريد العودة إلى البلاد إلا بعد مغادرة الشاه.

- **لا يقول** آية الله الخميني **شيئًا**، لا شيء غير كلمة: «لا»؛ للشاه، وللنظام، وللتبعيَّة.

- وأخيرًا؛ **فليس** آية الله الخميني **برجل سياسة**، ومن ثم؛ فلن يكون هناك «حزب خميني» أو «حكومة خمينيَّة».

إن آية الله الخميني هو نقطة ارتكازٍ للإرادة الجماعية. فما الذي يصبو إليه إذن هذا العناد، الذي لا يُزحزحه شيء؟ هل يبغي نهاية التبعيَّة التي تستند، بدعم من الأمريكيين؛ على توافق عالمي حول «وضع دولي» معيَّن؟ أم نهاية لتبعيَّةٍ أداتها المباشِرة هي الديكتاتورية، بينما قواعدُ السياسة هي قنواتُها غير المباشرة؟ إن هذه ليست انتفاضة عفويَّة تفتَقِرُ إلى التنظيم السياسي؛ بل هي حركة هدفها التخلُّص من الهيمنة الخارجية ومن السياسة الداخلية في آن واحد.

حين غادرتُ إيران؛ طُرِحَ عليَّ بالطبع السؤال ذاته، ودون هوادة: «هل هي ثورة؟» (ومصدر اهتمام قطاع كبير من الرأي العام في فرنسا هو في اعتقادهم أنَّه حدثٌ «لا يُشبِهنا»). لم أجب عن السؤال، لكني وددتُ القول إنها ليست ثورة بالمعنى الحرفي للكلمة، بحيث تُحيلنا إلى نمطٍ جديد للنهوض؛ لكنَّهُ تمرُّدُ الرجال العُزَّل، الذين يرغبون في وضع العبء الهائل عن كاهِلِ كل إنسان مُثقَل، لكنَّ عنايتهم الخاصَّة موجَّهةٌ إلى الثِقَل الجاثم على صدور عمال النفط

والفلاحين، الذين يعيشون على حدود الإمبراطوريات؛ إنه ثِقَلُ النظام العالمي بأجمعه. ربما كان هذا هو أوَّلُ تمرُّدٍ عظيمٍ ضد الأنظمة الكونية، وهو الصورة الأكثر حداثة للانتفاضة وأشدها جنونًا.

حينئذٍ، يمكننا أخيرًا أن نُدرِك الحرج الذي يعانيه السياسيون. فهم يُلفِّقون حلولًا العثور عليها أسهل حتى من التلفظ بها، وهي تمتدُّ من النظام العسكري المحض إلى تغيير دستوري يُفضي بنظام الوصاية إلى الجمهورية، لكنها تمرُّ جميعًا عبر إزاحة الشاه. فما الذي يريده الشعب؟ ألا يبغي أكثر من ذلك في حقيقة الأمر؟ بل إنهم يعرفون أن الشعب يريد شيئًا آخر بالكُليَّة، ولهذا السبب لا يقترحون عليه غير تلك الحلول؛ فيَصِلون معه إلى طريقٍ مسدود. وبالفعل، فأيُّ مكانةٍ تحتلها مثل هذه الحركة في حسابات السياسة؟ حركةٌ لا تسمح للخيارات السياسيَّة بأن تُشتِّتها، وتتخلَّلُها نفثات مذهبٍ دينيٍّ لا يتحدَّث عن الآخرة بقدر ما يروم تغيير وجه هذا العالم.

إيران؛ روح عالم بلا روح[1]

حوار مع ميشيل فوكو

عَمِلَ كل من «كلير بريار» و«پيير بلانشي» مراسليْن لصحيفة «ليبراسيون» في إيران. وقد تزامن نشر كتابهما، المليء بالحماسة؛ مع عمليات الإعدام الأولى لمعارضي نظام آية الله الخميني الجديد. وقد طال النقد ميشيل فوكو حينها بصورة مباشرة، في العرض الذي قدَّمه «برنار أولمان» للكتاب، في صحيفة «إكسپريس»؛ وفيه نسب لفوكو عبارات أو تفسيرات، اقتبسها عن بريار وبلانشي؛ قبل أن يختم عرضه قائلًا: «إن ميشيل فوكو في النهاية ليس أول ولا آخر مفكر غربي يتبنَّى أوهامًا عن مستقبل ثورة ما، سواء أكانت ثورة أكتوبر ١٩١٧م، أو ثورة القرنفل في البرتغال، أو تلك التي أطاحت بعرش آل پهلوي». وقد ردَّ فوكو على كل هذه الانتقادات في صحيفة لوموند، بتاريخ الحادي عشر من مايو [١٩٧٩م].[2]

كلير بريار: لنبدأ بأبسط الأسئلة! لقد كنتُ، مثلي مثل الآخرين، ومثلك أنتَ؛ مفتونةً بما حدث في إيران. فما سبب ذلك برأيك؟

م. فوكو: بل أود أن أبدأ بسؤالٍ آخر، ربما يكون أقل أهمية؛ لكنَّه قد يكون وسيلتي للشروع بإجابة سؤالك، وهو: ما الذي حدث في إيران، وأزعج هذا العدد من المنتمين لليسار واليمين على حدٍّ سواء؟ إذ لم تُثِر قضية إيران، والمسار الذي

---

(1) 1979: «L'esprit d'un monde sans esprit». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 743-755.

(٢) راجع المقال المعنون: «لا طائل من الانتفاضة؟».

اتخذته؛ التعاطُفَ نفسه الذي أثاره مثال البرتغال أو نيكاراغوا. ولا أقول إن الوضع في نيكاراغوا قد اجتذب اهتمامًا هائلًا لأن الناس كانوا يستَجِمون آنذاك تحت أشعة الشمس في ذروة فصل الصيف، لكني في حالة إيران لاحظتُ ردَّ فعلٍ تلقائيًا لا يمكن القول إنه كان تعاطفًا فوريًا. وتعرفون جيدًا مثال الصحافيَّة التي كتبت مقالًا من طهران، ونُشر في پاريس؛ فقد تحدَّثت في عبارتها الأخيرة عن «ثورة إسلامية» ثم أُضيفَت لفظة «مُتعصِّبة» لهذه العبارة، بصورة فجة؛ وهو وصف لم تكتبه الصحافيَّة بالطبع. وهذا مثال نموذجي لنمط الانزعاج الذي سبَّبَتْه الحركة في إيران.

پ. **بلانشي**: هناك العديد من المواقف التي يمكن الوقوف عليها في الحالة الإيرانيَّة. مواقِفُ صدرت عن أقصى اليسار الكلاسيكي، واليسار المتزمِّت، وأشدِّدُ هنا على الرابطة الشيوعية التي دعمت إيران. أما جماعات أقصى اليسار تطرُّفًا، والجماعات الماركسية اللينينيَّة؛ فقد وصفوا جميعًا ما يحدث في إيران بأنه تمرُّدٌ يقوده متدينون. لكن هذا الوصف ليس مهمًّا، إذ الدين ليس إلا واجهة تُتيح دعم هؤلاء المتمرِّدين دون مشكلات؛ فهو عندهم صراع كلاسيكي ضد الإمبريالية، يقوده فقيه ديني هو آية الله الخميني؛ تمامًا كما قد يقوده ماركسي لينيني في حالة ڤيتنام. ويتبنَّى الحزب الشيوعي، كما نطالع في صحيفة «لو مانيتيه»؛ نفس موقف الرابطة الشيوعية الثورية.[1] وفي المقابل، نجد اليسار قد تبنى موقِفًا ساخِطًا، سواء أكان الحزب الاشتراكي، أو اليسار الأكثر هامشية؛ من الملتفين حول صحيفة «ليبراسيون». وهو موقف ينبني على **مُعطيين اثنين**:

الأول أن الدين عندهم يعني الحجاب، والرجعيَّة، والتخلُّف؛ على الأقل فيما يتعلَّق بالمرأة.

والثاني هو ما نستشعِرهُ نحن أيضًا، إذ لا يمكن إنكاره؛ حين نتساءل ما إن كان علينا أن نخشى ديكتاتورية جديدة، إذا ما وصل المتدينون إلى السلطة وطبَّقوا برنامجهم؟

(١) هي حركة طلابيَّة تروتسكيَّة، وقد التحقت نظيرتها الإيرانيَّة بآية الله الخميني.

م. فوكو: يمكن القول إنه خلف هذيْن التجليين للانزعاج يكمُنُ تجلٍّ آخر، أو ربما هو تعجُبٌ وحيرة حيال هذه الظاهرة، التي تُثير فيضًا من الفضول؛ من وجهة نظر ذهنياتنا السياسيَّة. فهي ظاهرة يمكن القول إنها ثورية بالمعنى الواسع للكلمة، إذ تعني انتفاض أمَّة بأكملها ضد سلطة تضطهدها. لكننا لا نعترِفُ بثورةٍ معينة إلا حين نضع أصابعنا على آليتين اثنين، يجب أن يجري داخلهما الحدث: الأولى هي تناقضات هذا المجتمع، والخاصة بالصراع الطبقي أو الانقسامات الاجتماعية الكبرى؛ تليها آليَّة سياسية، أي وجود طليعة، أو طبقة، أو حزب، أو أيديولوجية سياسية؛ أو -باختصار- حضور رأس حربة تقود الأمَّة برمَّتها. لكن، يبدو لي أنه ليس بمقدورنا، في الحالة الإيرانيَّة؛ الاعتراف بوجود أيٍّ من هاتين الآليتين، اللتين نعتبرهما السمتين المميزتين والواضحتين لأي ظاهرة ثورية. إذ ما هي الحركة الثورية عندنا، إذا كنا لا نستطيع موضعة الصراع الطبقي فيها، أو حتى التناقُضات الداخليَّة للمجتمع، أو حين لا يمكننا تحديد طليعة هذا المجتمع؟

ب. بلانشي: لقد التقيت العديد من الماركسيين في جامعة طهران، وقد كانوا جميعًا يَعُون أنهم يُعايشون ثورة مذهلة. لقد فاقت بكثيرٍ ما كانوا يتخيلونه، ويتمنونه، ويحلمون به يومًا. وحين كانوا يُسألون عن رأيهم؛ كانوا يصفون الواقع بقولهم: «إنه وضع ثوري، لكن ما من طليعة».

كلير بريار: إن أكثر ما تعوَّدتُ سماعه عن إيران هو أننا لا نفهم ما يجري. إذ عندما توصف حركة ما بأنها ثورية، فإن الجمهور الغربي، ونحن معه؛ يربطونها بمفهوم «التقدُّم»، وبحدوث شيء سيقودها في اتجاه ذلك التقدُّم. وهو ما يجعل انطباق مفهوم الحركة الثوريَّة يتعرَّض للتشكيك في حالة الظاهرة الدينية. إذ إن موجة الاحتجاج الديني ضد الشاه تُحيلُ -واقع الأمر- إلى مرجعيَّةٍ تستندُ إلى مفاهيمَ تعود إلى ثلاثة عشر قرنًا خلَت، جنبًا إلى جنب مع استخدامها مطالبَ تخص العدالة الاجتماعية، وغيرها؛ بحيث يبدو أن الحركة تنحو باتجاه الفكر

أو الفعل التقدُّميين. لا أعرف ما إذا كنت قد تمكَّنت -خلال زيارتك إيران- من الإحاطة بطبيعة هذا الاحتجاج الديني الهائل، لأني شخصيًّا أعتقد أن ذلك من الصعوبة بمكان؛ فالإيرانيون أنفسهم يَغرَقون في هذا الغموض، ولديهم مستويات كثيرة من الخطاب، ومن أشكال الالتزام والتعبير. إن ثمَّة فارقًا بين مُتديِّنٍ ملتزم يهتف بشعار: «عاش الخميني»، وآخر يعترِفُ أنه ليس متدينًا وأن الخميني ليس سوى رمز، علاوة على ثالثٍ يُقِرُّ بأنه متدين معتدل يحب الخميني وآية الله شريعتمداري، في الوقت نفسه؛ وهما بالطبع شخصيتان جد مختلفتين. ثم هناك فارِق بين الفتاة التي ترتدي التشادور، لتُظهِر معارَضتَها للنظام؛ وأخرى نصف علمانية ونصف متديِّنة، لا ترتدي الحجاب؛ لكنها تقول إنها مسلمة وتهتف: «عاش الخميني»... هؤلاء جميعًا يُجسِّدون جميع المستويات الفكرية، لكن حين يهتف الجميع في حماسة، وفي اللحظة ذاتها؛ بشعار: «عاش الخميني»؛ تُلغى كل هذه المستويات المختلفة.

م. فوكو: لا أعرف ما إذا كنتِ قد طالعت كتاب «فرانسوا فوريه»، عن الثورة الفرنسية؛[1] فهو كتاب شديد الذكاء يمكن أن يساعد في جلاء هذا التشوش. إذ يميز الكتاب بين جميع عمليات التحول الاقتصادي والاجتماعي، التي بدأت قبل ثورة عام ١٧٨٩م، وانتهت بعد ذلك التاريخ؛ وبين خصوصية الحدث الثوري. فهو، بعبارة أخرى؛ يُميز بين خصوصية ما يستشعره الناس في أعماقهم، وبين ما يختبرونه يوميًّا -مما كسبت أيديهم- في هذا النوع من المسرح، الذي يُشكِّل الثورة. وأتساءل ما إذا كان بوسعنا تطبيق هذا التمييز على الحالة الإيرانيَّة؛ إذ يَحفِل المجتمع الإيراني بالفعل بتناقُضاتٍ لا يمكن إنكارها، لكن من المؤكد أن هذا الحدث الثوري، الذي يجري في الواقع البرَّاني منذ سنة؛ هو في الوقت نفسه تجربة جوَّانيَّة، وضرب من الطقوس الدينيَّة التي تتكرَّرُ بلا هوادة، وتجربة مجتمعية. إن ما يحدث في إيران يشمل بالقطع -فيما يشمل- الصراع الطبقي، لكنَّه

(1) François Furet, *Penser la révolution* (Paris, Gallimard), 1978.

لا يعبِّر عنه بشكل مباشر وشفاف، أيْ أنه لا يدفع به إلى صدارة المشهد. فما الدور الذي يحتله الدين، والذي يجعل له مثل هذا التأثيرِ الهائل على الجمهور، ويُكسِبهُ موقعَهُ في مواجهة السلطة السياسية؛ وما مضمونه الذي يجعل منه دين كفاح وتضحية؟ إنه ليس دورًا أيديولوجيًّا، في حالتنا هذه؛ تتخفَّى وراءه التناقضات، أو يضمن نوعًا من الاتحاد المقدَّس بين مجموعة من المصالح المتباينة؛ بل لقد جسَّد الدين المفردات، والطابع الطقوسي الاحتفالي، ودراما لا تخضع للزمن (intemporel)؛ بحيث يمكن أنْ تتنزَّل فيها الدراما التاريخيَّة لهذا الشعب، الذي وضع وجودَه كله في مواجهة عين وجود مليكه.

ب. بلانشي: إنَّ ما أذهلني هو أنها كانت انتفاضة شعبٍ على بكرة أبيه، وأُشدِّدُ على أن الشعب كله قد شارك فيها. لنأخذ مظاهرة يوم عاشوراء[1] مثالًا على ذلك، ونتأمل في الأعداد المشاركة. فإذا نحَّينا الأطفال الصغار، والعاجزين، والشيوخ، ونسبة من النساء اللائي بقيْن في المنازل؛ سندرك آنذاك أن طهران بأسرها كانت في الشوارع، تَهتِفُ: «الموت للشاه»؛ ربما باستثناء الطُفيليين الذين يتعيَّشون من وجود النظام. بل حتى هؤلاء الذين ساندوا النظام لفترة جد طويلة، والذين كانوا قبل شهرٍ واحِدٍ مُناصِرينَ لملكيَّةٍ دستوريَّةٍ؛ هتفوا كلهم بشعار: «الموت للشاه». إنها لَلَحظة عجيبة وفريدة، وستظلُّ كذلك. وسيختمر الأمر بطبيعة الحال بعد فترة، لتمايز المستويات والطبقات المشاركة.

م. فوكو: من المعالم التي تميز هذا الحدث الثوري هو أنه أفرز للمشهد إرادة جماعيَّة بالكليَّة، وقلَّةٌ من الشعوب قد أُتيحت لها مثل هذه الفرصة في التاريخ. إن الإرادة الجماعيَّة هي الأسطورة السياسية التي يستخدمها القانونيون والفلاسفة في تحليل المؤسسات أو تبريرها. إنها أداة نظرية؛ إذ إن أحدًا لم يشهَد «الإرادة الجماعية» يومًا، وقد اعتقدتُ شخصيًّا أنها كالإله، أو كالروح؛ تستحيلُ رؤيتها. ولستُ أدري إذا كنت ستتفِقُ معي أم لا، لكننا رأينا بأم أعيننا «الإرادةَ الجماعية»

[1] وقعت احتجاجات ضخمة في طهران يوم الحادي عشر من ديسمبر ١٩٧٨م، وهو الموافق للعاشر من شهر المحرم.

للشعب في طهران، بل وفي شتى أنحاء إيران. وهذا لعمري مما يستحق الإشادة؛ فهو أمرٌ لا يحدث كل يوم. علاوة على ذلك (وهنا يمكننا الحديث عن الدلالة السياسيَّة التي يمثِّلها آية الله الخميني)، مُنِحَت هذه الإرادة الجماعيَّة موضوعًا محدَّدًا وهدفًا واحدًا لا غير؛ هو: رحيل الشاه. إن هذه الإرادة الجماعية، التي لا تزال عامَّةً في نظرياتنا؛ قد حدَّدت لنفسها هدفًا واضحًا ومحدَّدًا في إيران، ولذلك فقد اقتحمت التاريخ مجسَّدةً. وربما يعثر الباحث -بطبيعة الحال- بظواهر من النوع نفسه في حروب الاستقلال والجهاد المناهِض للوجود الكولونيالي. أما في إيران، فقد كانت المشاعر القوميَّة شديدة القوَّة، إذ إن رفْض الخضوع للأجانب، والاشمئزاز من نهب الموارد الوطنية، ورفض السياسة الخارجيَّة التابِعة والتدخُّل الأمريكي السافر والمشهود في كل المجالات؛ كانت كلها عوامل حاسمة في اعتبار الشاه عميلًا للغرب. لكن الشعور القومي، في رأيي؛ كان مُجرَّد مكوِّنٍ من مكونات رفضٍ أكبر وأكثر راديكالية، وهو الرفض الذي عبَّر عنه شعب بأكمله، لا للأجنبي فحسب؛ بل لكل ما شكَّل تاريخه السياسي لسنوات وقرون خلت.

پ. بلانشي: حين كنا في الصين عام ١٩٦٧م، وهي من أشد فترات تألُّق نجم «لين بياو»؛[١] شعرنا كذلك بوجود عين النوع من الإرادة الجماعية. إن ما وقع هناك كان شديد الوطأة، إذ اجتاحت الشعبَ الصيني كله رغبة جد عميقة في التغيير، وطالت هذه الرغبة كل الأسئلة التي حُسِمَت اليوم في الصين بطريقة كلاسيكية، مثل قضيَّة العلاقة بين المدن والريف، وبين المثقفين والبرامج الحزبيَّة. وقد شعرنا ونحن في بكين بأن الصينيين يُشكِّلون شعبًا شديد اللحمة، لكن تبيَّن لنا لاحقًا أن الأمر لم يكن كذلك تمامًا. لقد تفاعلنا مع الصينيين آنذاك تفاعُلًا شديدًا، وقارنَّا تجربتهم بتجربتنا؛ ربما لهذا السبب نتردَّد أحيانًا في الإفراط في إبداء الإعجاب بما يحدث في إيران. وعلى أيَّةِ حال، فثمة شيء مشترك بين

(١) هو الماريشال ووزير الدفاع ونائب رئيس مجلس الدولة ونائب رئيس الحزب الشيوعي الصيني منذ عام ١٩٥٨-١٩٥٩م تقريبًا، والرجل الثاني في الصين بعد «ماوتسي تونغ»؛ وكان المرشح لخلافته قبل مقتله في حادث غامض عام ١٩٧١م. كذا، كان أهم قيادات الثورة الثقافيَّة، وكبير عُبَّاد ماو. ولا تزال وفاة الرجل تُثير التكهُّنات. (المترجم)

الكاريزما التي تمتَّع بها «ماوتسي تونغ» وتلك التي يتمتَّع بها آية الله الخميني، علاوة على المشترك بين الطريقة التي يتحدَّث بها شباب المناضِلين الإسلاميين عن الخميني وبين طريقة حديث الحرس الأحمر عن ماو.

م. **فوكو**: ورغم ذلك قدَّمت الثورة الثقافية نفسها بوصفها صراعًا بين السكان بعضهم بعضًا، وبين كوادر الحزب بعضهم بعضًا، أو بين الشعب والحزب... إلخ. أما ما أدهشني في إيران فهو أنه لا وجود لهذا الصراع بين العناصر والانتماءات المختلفة. بل ثمة مواجهة واحدة فقط، وهذا ما يصنع جمال المشهد وخطورته في الوقت نفسه. إنها مواجهة بين الشعب مُجتمعًا، وبين السلطة التي تُهدِّدهُ بأسلحتها وأجهزتها الأمنية. ولم يكن ثمة حاجة إلى تصعيدٍ تدريجيٍّ باتجاه الحدود القصوى، إذ حدث كل شيء على الفور؛ فصارت إرادة الشعب مُجتمعةً في جانبٍ مقابِلٍ للمدافع الرشاشة المحتشِدة على الجانب الآخر. يتظاهر الشعب؛ فتصِلُ الدبابات، وتتكرر المظاهرات؛ فتُطلِق المدافع الرشاشة الرصاص من جديد. ويتكرَّر الأمر تكرارًا يكاد يتطابق في كل مرة، مع زيادة في الكثافة بالطبع؛ لكن بدون تغيُّرٍ في الشكل أو في الطبيعة. ثم تتكرَّر المظاهرات، وهكذا دواليك. ربما يتسلَّل الملل بسرعة إلى قُراء الصحف الغربية كلما قرأوا عن مظاهرةٍ جديدة في إيران، لكني أعتقد أن المظاهرة تطوي معنى سياسيًّا قويًّا في تكرارها ذاته. إن لفظ **مظاهرة** يجب أن يُحمَل على المعنى الدقيق المباشر؛ أي أن هذا الشعب لا يكلُّ ولا يملُّ من **إظهار** إرادته جليَّةً ساطعة. وفي نهاية المطاف، فإن الشاه لم يرحل بسبب المظاهرات وحدها، لكن ليس بوسعنا إنكار مواجهة الرجل لرفض قاطع مُمتد إلى أجلٍ غير مسمًّى. وفي هذه المظاهرات تكمن صلة ما بين الأفعال الجماعيَّة والطقوس الدينية، وبين الفعل الذي يتم في إطار الحق العام. يشبه هذا كله ما حدث في التراجيديا الإغريقية، إذ يترافَق الاحتفال الجماعي وإعادة تحديث مبادئ الحق جنبًا إلى جنب. وفي شوارع طهران حدث الشيء نفسه، إذ ثمة فعل سياسي وقانوني أُنجز جماعيًّا، داخل إطار الطقوس الدينية؛ وقد كان هذا الفعل هو الإطاحةُ بالشاه.

پ. بلانشي: لقد فُتِنتُ بما وقع في إيران حينًا، وانزعجت أحيانًا؛ لكنَّ ما أذهلني ذهولًا عارمًا، في أمر الإرادة الجماعية؛ أن الطلاب كانوا يقولون لنا: «كلنا سواسية، وكلنا واحد، وكلنا خرجنا في سبيل القرآن. كلنا مسلمون ولا فرق بيننا؛ اكتبوا ذلك، وقولوا للعالم إننا سواسية كأسنان المشط». ورغم ذلك، أدركنا دومًا أن الاختلافات كانت موجودة؛ فقد عرفنا مثلًا أن المثقفين، وقسمًا من تجار البازار والطبقات المتوسطة؛ كانوا يخشون التمادي مع الحدث ومع ذلك خاضوا مع الخائضين، وهذا ما ينبغي تفسيره.

م. فوكو: هذا حقيقي بطبيعة الحال. لكن ثمة شاهِد تجب ملاحظته في كل ما يجري في إيران. نحن بصدد حكومة كانت تُعَدُّ الأفضل تجييشًا وتسليحًا، وفي خدمتها قوات كثيفة العدد، بل كان ولاء هذه القوات جليًّا، على عكس ما قد نعتقد. إن قوات الشرطة، وإن كانت غير فعالة بدرجةٍ كبيرة؛ إلا أنها افتقدت للمرونة ومالت، في كثير من الأحيان؛ للعنف والوحشية. علاوة على ذلك، كان النظام كله مدعومًا دعمًا مباشرًا من الولايات المتحدة، كما نال مؤخرًا تأييدًا عالميًّا، وتأييد البلدان المحيطة على اختلاف أهميتها. وبعبارةٍ أخرى، حاز النظام جميع المزايا السياسيَّة الممكنة مضافًا إليها النفط، الذي يكفل للسلطة دخولًا وعائدات تستطيع التصرُّف فيها كيفما تشاء. فلا غرو إذن أنْ ينتفض الشعب في مثل هذه الظروف. لقد انتفض بالطبع بسبب الأزمة الخانِقة والصعوبات الاقتصادية، لكن هذه الصعوبات، التي واجهتْها إيران آنذاك؛ لم تكن -في التحليل الأخير- من الشدَّة بحيث تدفع الناس للخروج إلى الشوارِع بمئات الآلاف، ثم بالملايين؛ ومواجهة المدافع الرشاشة بصدور عارية. وها هنا تكمن الظاهرة التي يجب أن تحظى بالدراسة.

پ. بلانشي: إذا أجرينا مقارنة بين وضعنا، ووضع إيران؛ لأدركْنا أننا ربما نعاني من صعوباتٍ اقتصادية أكبر.

م. فوكو: ربما. وفي أسوأ الحالات، سيتبقَّى لنا البحث في السبب الذي يدفع أناسًا للانتفاض، حين يواجهون صعوبات اقتصاديَّة ما؛ ليقولوا: كفى، لم يعد هذا

مقبولًا. فحين انتفض الإيرانيون كان لسان حالهم، أو لعلَّها روح الانتفاضة: يجب أن نُغيِّر النظام ونتخلَّص من هذا الرجل، ومن هؤلاء الموظفين الفاسدين -بطبيعة الحال- ثم يتعيَّن علينا تغيير كل شيء في البلاد؛ التنظيم السياسي، والنظام الاقتصادي، والسياسة الخارجية. لكن، وفوق كل شيء؛ علينا أن نغير أنفسنا. يجب أن يتغيَّر أسلوب حياتنا كليًّا، وتتغيَّر علاقاتنا مع الآخرين، ومع الأشياء، ومع الأزليَّة، ومع الله، إلخ. إذ لن تصير الثورة حقيقيَّة، إلا إن حدث هذا التغيير الجذري في حياتنا ووجودنا. وأعتقد أن الإسلام لعب دوره ههنا بالكامِل؛ فهل كان السبب هو السحر الكامِن في كل التزاماته وأحكامه؟ ربما نعم، لكن السبب الأهم هو أن الدين، مقارنةً مع طريقتهم في الحياة؛ كان كالوعد والضامِن للعثور على ما يُغيرون به أنفسهم جذريًّا. إن للمذهب الشيعي تعاليمه ومضمونه الباطِن، إذ يميز بين ما يُعتبر مجرَّد طاعة برانيَّة للشرع، وما يُعتبر حياةً روحية عميقة. وحين أقول إنهم كانوا يبحثون في الإسلام عما يُساعدهم على تغيير ذواتهم؛ فإن ذلك يتوافَقُ تمامًا مع حقيقة أن الممارسات الإسلاميَّة التقليدية ظلَّت باقية بين ظهرانيهم، وهي التي صانت هويَّتهم. وثمة شيء آخر يكمُن في الطريقة التي تمثَّلوا بها الإسلام بوصفهِ قوَّة ثورية، غير إرادة الخضوع المخلِص للشرع؛ إنها إرادة تجديد حيواتهم كليًّا من خلال تجديد العهد والصلة بالتجربة الروحيَّة التي يعتقدون أنهم سيعثرون عليها في قلب المذهب الشيعي. لطالما اقتُبِسَت مقولة ماركس، «الدين أفيون الشعوب»؛ لكن قلَّما تَرِد العبارة السابِقة عليها في هذه الاقتباسات، وهي أنَّ: «**الدين روح عالم بلا روح**». لنفترِض إذن أن الإسلام هذا العام [١٩٧٩م] لم يكن أفيونًا للشعب الإيراني، وإنما روح عالمٍ بلا روح.

كلير بريار: توضيحًا لبعض ما تذهب إليه، من أن «المظاهرة» في إيران «ظهور»؛ أتصور أنه يجب علينا استعمال لفظة شهود. لا ينقطِعُ الحديث في إيران عن الحسين؛ فمن هو الحسين؟ إنه «مُتظاهر»، وشاهد -أو شهيد- يتظاهر بوجه الباطِل من خلال معاناته، ويتمجَّد موتُه أكثر من حياة خصمه المنتَصِر. إن الأفراد الذين تظاهروا بصدور عارية كانوا شهودًا كذلك؛ لقد شهدوا على جرائم الشاه،

وجرائم السافاك، ووحشية النظام الذي لم يعودوا راغبين في بقائه، إذ صاروا رافضين للباطِل الذي يجسِّدهُ.

پ. بلانشي: الحديث عن الحسين إشكاليٌّ عندي. فالحسين شهيد، أي أنَّهُ «ميِّت»؛ والشعب الإيراني هتف بشعار: «الشهيد، الشهيد»، بلا كلل؛ حتى أطاح بالشاه، وهو أمر مدهش وغير مسبوق. لكن ما الذي سيحدث الآن؟ لن يظل الجمع يهتف: «الشهيد، الشهيد»، حتى يلقوا حتفهم جميعًا، أو يُداهمهم انقلاب عسكري؛ لقد رحل الشاه، ولا ريب أن الحركة، التي تمحورت حول الشهادة؛ سوف تتفكَّك.

م. فوكو: بالقطع ستحين اللحظة التي تذوي فيها هذه الظاهرة التي نحاول فهمها، والتي خلبت ألبابنا؛ وأقصد بذلك خفوت التجربة الثوريَّة نفسها. التجربة التي كانت كأنها نور أشرق في باطِن كل إيراني؛ فانغمسوا جميعًا فيه -بكل ما تحمله اللفظة من معان- في نفس الوقت. ثم سيخبو هذا النور؛ لتظهر مختَلَف القوى والتيارات السياسية، ونشهد تسويات وصفقات. ولستُ أدري بالمرَّة من سينتصر حين يحدث هذا، ولا أظن أن الكثيرين يمكنهم الجزم بذلك في الوقت الحاضر. نعم، سيختفي كل هذا، وستُدشَّن مسارات تنتمي إلى مستوى آخر من الفعل، ولواقع آخر على نحو ما. وما أرمي إليه هو أن ما عايشناه في إيران لم يكن نتيجةً لتحالُفٍ بين مجموعات سياسيَّة مختلفة مثلًا، ولا نتيجة تسوية أو تفاهُم بين طبقتيْن اجتماعيتيْن تدعم إحداهما الأخرى، ثم تتنازل كلتاهما في نهاية المطاف، وتوافقا على خيارٍ بعينه. كلا البتَّة؛ فإن ما حدث شئ جد مختلف. إذ تخلَّلت ظاهرة ما الشعبَ -عن بكرة أبيه- وستنحسِرُ يومًا. وفي تلك اللحظة، لحظة الانحسار؛ لن يتبقى سوى الحسابات السياسية المختلفة، التي ما تزال حاضرة في أذهان الجميع. ولنضرب مثالًا على ذلك؛ فإن الناشط في مجموعة سياسية ما، الذي خرج مُتظاهِرًا في إحدى تلك المسيرات؛ كأنما هو شخصان في شخص واحد: فهو من جهة صاحب حساباتٍ سياسيَّةٍ معينة، لكنَّه في الوقت نفسه فردٌ

ألفى نفسه في خِضَمِّ هذه الحركة الثورية، أو بالأحرى هو ذلك الإيراني الذي ثارَ ضد ملكه. ولا صلة بين الأمرين، إذ إنه لم يَثُرْ ضد الشاه لأن ذلك كان في مصلحة حزبه.

كلير بريار: لعلَّ أحد الأمثلة المهمة على ذلك هو موقف الأكراد. إذ تبنَّى الأكراد مُفردات هذه الانتفاضة ورموز هذه الحركة، رغم أنهم في غالبيتهم من أهل السُّنَّة، وهم أصحاب نزعاتٍ انفصاليَّة معروفة منذ أمد بعيد. لقد ظنَّ الجميع أنهم سيعارضون الحركة، لكنهم أيدوها ولسان حالهم: «نحن بالطبع سُنَّة، لكننا مسلمون قبل ذلك». وحين تُحدِّثهم عن خصوصيَّتهم الكرديَّة؛ يعتريهم الغضب لفورهم، ويجيبون باللغة الكردية، التي ينقلها لك المترجم: «ماذا؟ أتقول إننا مُجرَّد أكراد؟! كلا، بل نحن إيرانيون في المقام الأول، ونحن نتحمَّلُ نصيبنا من كل المشكلات التي تُعانيها إيران، ولذا فنحن نريد رحيل الشاه». وقد رفع المتظاهرون في كردستان عين الشعارات التي رفعها أضرابهم في طهران، أو في مشهد؛ مثل: «عاش الخميني» و«الموت للشاه».

م. فوكو: عرفتُ إيرانيين في پاريس، ولفت انتباهي الخوف الهاجسي، الذي يسيطر على الكثيرين منهم؛ خشية انكشاف علاقاتهم مع اليساريين، أو أن يتسرَّب إلى عملاء السافاك أنهم قرأوا هذا الكتاب أو ذاك... ومن ثم، ظننتُ، حين وصلتُ إلى إيران؛ أني سأجد بلدًا مُتخمًا بالرعب، خصوصًا بعد مجازر سبتمبر وسقوط أربعة آلاف قتيل. وإذا لم يكن بمقدوري القول إني وجدتُ الإيرانيين سعداء، فبوسعي، بدلًا من ذلك؛ القول إني لم ألمس خوفًا، بل شجاعة كثيفة، أو هي بالأحرى تلك الكثافة التي يحوزها البشر حين يتجاوزون حاجز الخطر، الذي يظل قائمًا وتظل عودته في طور الإمكان؛ فهم في ثورتهم قد تجاوزوا الخوف من المدافع الرشاشة، وإن ظلت مصوَّبة إلى صدورهم.

پ. بلانشي: تُرى، هل سيستمر الأكراد في مساندتهم للشيعة؟ وهل ستظل الجبهة الوطنية تُسانِد رجال الدين؟ وهل ستواصل «الإنتلجنتسيا» دعمها

للخميني؟ ربما نشهَد ارتدادات غير مألوفة إذا ما سقط عشرون ألفًا من القتلى، وتدخَّل الجيش، أو إذا زادت احتمالات نشوب حرب أهلية، أو تبلور إمكان قيام جمهوريَّة إسلاميَّة استبداديَّة. وسيقال حينها إن آية الله الخميني هو من أجبر الجبهة الوطنية على موقفها ذاك، أو أنه لم يشأ احترام الرغبة في الوصول إلى تفاهُم يُرضي الطبقات الوسطى والمثقفين. سيُقال الكثير والكثير، مما قد يكون صحيحًا وباطلًا في الوقت ذاته.

م. **فوكو**: بالضبط. يمكن أن يحدث ذلك لكن قد لا يكون صحيحًا. وقد قِيلَ لي: «إن كل ما تظنه بشأن إيران غير صحيح، لأنك لا تعرف أن الشيوعيين موجودون في كل مكان. وما أقوله صحيح، فأنا أعرف أن العديدين ينتمون إلى تنظيماتٍ شيوعيَّةٍ أو ماركسية لينينيَّة، وهو أمر يستوجب الاعتراف به. لقد اجتذبتني مقالاتك لأنك لم تحاول تفكيك هذه الظاهرة الثوريَّة إلى عناصرها الأوليَّة، بل حاولتَ تركها كما هي، كشعاع النور الذي نعرف أنه يتكوَّن من روافد عديدة، وهذا هو مناط الرهان والفائدة في الحديث عن إيران».

پ. **بلانشي**: دعني أسوق لك مثالًا عايشتُهُ بنفسي. فقد خرجنا ذات ليلة، بعد دخول توقيت حظر التجوال؛ مع فتاة في الأربعين من عمرها. كانت فتاة شديدة التغرُّب؛ نشأت في لندن، وتسكُن في شمال طهران. وذات مساء، وخلال الفترة السابِقة على شهر المحرم؛ جاءت تزورنا في الحي الشعبي، حيث نُقيم. كان إطلاق النار ينهمِرُ من كل الاتجاهات؛ فاصطحبناها إلى الأزِقَّةِ لترى الجيش، والناس، وتسمع الصيحات المتعالية فوق أسطُح المنازل... كانت المرة الأولى التي تزور فيها هذا الحي، وتسيرُ فيه على قدميها؛ وتتحدَّثُ مع أناسٍ بسطاء يَهتِفون: «الله أكبر». وقد تأثرَتْ بعُمق، وتحرَّجت لأنها لم تكن ترتدي التشادور، لا لأنها كانت تخشى أن يُلقى ماء النار على وجهها؛ بل لأنها أرادت أن تُشبِهَ «الأخريات». وههنا، لم يكُن التشادور هو المهم، بل ما قاله الناس لنا، وطريقة حديثهم، التي كانت ذات صبغة دينيَّة واضحة؛ إذ يختمون كلامهم دومًا بالدُعاء:

«حفظكم الله» (بالفارسيَّة: خُدا حافظ، وتُقال غالبًا عند التوديع)، كما يستعملون صيغًا أخرى عديدة أقرب للروحانيَّة. وقد شرعت هي تجيبهم بالطريقة ذاتها، وبالمفردات نفسها. لقد أخبرتنا بعدها، وهي في غاية التأثُّر؛ بأنها المرَّةُ الأولى التي تتكلَّم فيها بهذه الطريقة.

م. فوكو: ومع ذلك، سيفسر المؤرخون هذا كله أنه اتحاد الطبقات العليا باليسار الشعبي، وما إلى ذلك من التخرُّصات؛ ليتحوَّل بعدها هذا اللغو إلى حقيقةٍ تحليلية. وأعتقد أن هذا هو أحد الأسباب التي تجعلنا نشعر بالانزعاج، حين نعود من إيران؛ فيسألنا الناس، بغية الفهم؛ أنْ نعطيهم مخططًا تحليليًّا لواقعٍ مُتخيَّل بالفعل في أذهانهم.

كلير بريار: أفكر في شبكة تفسيرية أخرى، نملكها نحن الصحافيون والغربيون. لقد خضعت هذه الحركة لمنطقٍ فريدٍ مِنْ نوعه، حتى قيل إن العديدين من المراقبين الغربيين تجنَّبوا الحديث عنها في مواطِنَ كثيرة. وهو ما حدث يوم إضراب الجبهة الوطنية الفاشل، في شهر نوفمبر؛ أو في أربعينيَّة يوم الجمعة الأسود، الذي كان مريرًا شنيعًا، حتى توقَّعنا أن أربعينيَّتهُ سيسودها الحزن العميق، ويطفر فيها الألم الشديد؛ لكن العديد من المتاجر قد أُعيد فتحها، ولم يبدُ أن الناس في حداد. ومع ذلك، تواصلت الحركة بمنطقها وإيقاعها الخاص، بل وتنفُّسها الفريد. وقد ترسَّخ عندي انطباع أن الحركة في إيران، برغم الوتيرة المحمومة في شوارع طهران؛ قد اتخذت إيقاعًا يمكن مقارنته بإنسانٍ يتنفَّس، وينهَك، ثم يستعيد أنفاسه، قبل أن ينطَلِق كرَّة أخرى، لكن كأنه يتنفَّس في جماعة؛ إذ كان الجميع يسيرون كأنهم رجل واحد. لم يُقِم الإيرانيون مظاهر حدادٍ كبرى في اليوم الأربعين، فقد كانوا يستعيدون أنفاسهم بعد مذبحة ميدان جاله، ليُعيدوا إطلاق الحركة عبر عدوى الإضرابات المذهلة التي تطوَّرت آنذاك، ثم حين حلَّ موعِدُ بدء العام الجامعي؛ أطلق سكان طهران العنان لغضبهم، الذي أضرم النار في الرموز الغربية قاطبةً.

م. فوكو: لقد أثارت فضولي الطريقة التي استُخدِمَ بها سلاح النفط. فقد كان بالفعل عُنصرًا حساسًا وعاملًا مباشرًا، بوصفه عِلَّة الشر وسلاحًا مطلق القوة. ربما نتمكن يومًا من معرفة ما حدث حينذاك، لكن يبدو أن هذا الإضراب وتكتيكاته لم تكن نتيجة تخطيطٍ مُسبَق. ففي لحظة واحدة، ودون إشعارٍ مُسبَقٍ أو أمرٍ من مركزٍ ما؛ دخل عمال النفط في إضراب، بتنسيق مشترك بينهم؛ من مدينة إلى أخرى، وبصورة عفوية تمامًا. علاوة على ذلك، لم يكن الإضراب من النمط الذي يعني التوقُّف عن العمل، وتعطيل الإنتاج؛ بل كان هدفه التأكيد على أن النفط ملك للشعب الإيراني، وليس ملكًا للشاه، أو لزبائنه، أو لرعاته. لقد كان إضرابًا لاستعادة ملكيَّة ثروةٍ وطنيَّة.

كلير بريار: إذن، فالعكس هو الصحيح؛ لأنه لا بد من القول إنك حينما تواجه، أيها الفرد والصحافي الأجنبي والمرأة؛ هذا التوحُّد، وهذه الإرادة المشتركة؛ فستُصاب حينها بصدمة مهيبة. وهي صدمة أخلاقيَّة ومادية، فكأن هذا التوحُّد يُطالِبُك بالانسجام معه، وويلٌ لمن لا يفعل. لقد واجهنا جميعًا مثل هذه المشكلات في إيران، وربما من هنا تصدُر تلك التحفُّظات التي نشهدها في أوروبا؛ فنحن نتحدَّث عن روعة الانتفاضة، نعم، ولكن...

م. فوكو: لقد لاحظنا حدَّة مظاهر التعبير عن معاداةِ الساميَّة، وإن كانت لفظيَّة. كما لمسنا مظاهر التعبير عن كراهية الأجانب، لا الأمريكيين فحسب؛ بل كذلك تجاه العمال الأجانب الوافِدين للعمل في إيران.

پ. بلانشي: هذا هو، واقع الأمر؛ المقابِلُ المناقِضُ للتوحُّد، الذي قد يُشكِّلُ مصدرًا للقلق لدى البعض. فمثلًا تلقَّى مُصوِّرٌ بعض اللكمات في وجهه، للاعتقاد بأنه أمريكي؛ فاحتج قائلًا: «توقَّفوا؛ أنا فرنسي»؛ حينذاك قبَّلهُ المتظاهِرون، وقالوا له: «لا تخبر الصحافيين بذلك». أذكر كذلك مطالبات المتظاهرين، إذ ألحُّوا علينا: «أخبروهم أن آلافًا من الضحايا قتلوا، وملايين من المتظاهرين في الشوارع».

كلير بريار: تلك مشكلة أخرى. مشكلة الثقافة المغايرة، والتصور المختلف، الذي شكَّل علاوة على ذلك جزءًا من النضال. لأنك حين تحارب وأنت أعزل،

ونُراكم أعداد الموتى الحقيقيين والخياليين؛ فأنت تستحضر الخوف لتصير أكثر إقناعًا.

م. **فوكو**: ليس لديهمْ نفس نظام الحقيقة الخاص بنا، الذي هو بالمناسبة شديد الخصوصيَّة مهما اقترب اليوم من العالميَّة. لقد كان لدى الإغريق نظامهم الخاص، ولدى عرب المغرب العربي نظام آخر. وفي إيران، يتشكَّل النموذج في مجمله وفق هذا المذهب الديني، بحيث يملك شكلًا برانيًّا مرئيًّا، ومحتوى جواني كامِن. وهذا يعني أن كل ما يقال صراحة في الشرع، يحيل في الوقت نفسه إلى معنى آخر في المنطوق المتحدَّث به. لذا، فإن الكلام الذي يُحيلُ إلى معنى آخر، غير ظاهِرٍ بالقول؛ لا يُعدُّ غموضًا مستهجنًا، بل على العكس؛ إذ يُشير إلى حمولة ضرورية وذات قيمة. وفي هذه الحال، فإن قناعتي ربما تتضمَّنُ معنىً قد لا يَصِحُّ على مستوى الوقائع، لكنها تُحيلُ إلى معنى آخر أكثر عمقًا؛ معنىً لا تستطيع المفردات الدقيقة الانعقاد عليه.

كلير بريار: ليس هذا ما يُزعجني. لكني أشعر بالغضب حين أسمع مرارًا وتكرارًا أنه سيتم احترام جميع الأقليات، ثم لا يحدث ذلك. أتذكر موقِفًا، وإن لم يكن بدقَّةٍ تامَّةٍ؛ واجهتُه خلال مظاهرة شهر سبتمبر، وأود تسجيله هنا، لأني يجب أن أبوح به. فقد ارتديت التشادور، باعتباري سيدة بطبيعة الحال؛ لأبدو محجبة، وحدث أنْ مُنِعْتُ من الصعود إلى سيارة الصحافيين بعد أن بلغ مني تعب المشي مبلغه. ثم حين ركبتُ السيارة، حاول المتظاهرون حولي منعي من الوقوف، وشرع بعض الرجال بالصراخ، لأني كنت أرتدي الصندل دون جوارب، حتى بدا كأن في الأمر ضغينة. كان موقفًا كاسحًا ينم عن شعور بعدم التسامح. بيد أن حوالي خمسين شخصًا آخرين كانوا في نفس المكان؛ فصاحوا: «إنها صحافية، ولها الحق في الانضمام إلى الموكب، وما من سبب يمنع وجودها في السيارة». قد يُقال لك إنهم لن يتسامحوا مع اليهود ما لم يتوقفوا عن دعم إسرائيل، وصحيح أني شهدت بعض التصريحات المعادية للسامية، لكن حينما يتلقى البعض رسائل مُجهَّلة النسبة؛ تصير مصداقية الحركة على المحك. إن قوة الحركة تكمُن في

توحُّدها، لكن بمجرد أن تستشعر الحركة وجود خلافات صغيرة؛ يولَد شعورها بالتهديد. وأعتقد أن عدم التسامح يصير في هذه الحالة أقرب للضرورة.

م. **فوكو**: إنَّ ما منح الكثافة للحركة الإيرانية هو التأكيد المزدوج: إذ يجري التعبير عن الإرادة الجماعيَّة سياسيًّا بقوَّة، ومن الجهة الأخرى؛ فثم رغبة في تحقيق تغيير جذري في الحياة. لكن هذا التأكيد المزدوج لا يمكن إلا أن يستند إلى تقاليد ومؤسسات تحمل قدرًا من الشوفينية، والقوميَّة، والاستبعاد؛ وكلها ذات جاذبيَّة وسلطان كبير للغاية على الأفراد. وحين تواجه نظامًا قويًّا ومسلحًا لا يمكن السماح بوقوع فُرقة، أو الانطلاق من فراغ. وبقطع النظر عن مشكلات الخلافة المستعجلة للشاه، فثمة تحدٍّ آخر يلفت انتباهي بقدر أكبر؛ وهو معرفة ما إذا كانت هذه الحركة الوحدويَّة، التي أوقفت شعبًا بأسره أمام المدافع الرشاشة، طيلة سنة كاملة؛ ستملك القدرة على تجاوز حدودها الخاصة، وتجاوز المسلَّمات التي استندت إليها لفترةٍ من الزمن. فهل ستختفي هذه القيود وهذه الدعامات بمجرد أن ينتهي الزخم، أم أنها على العكس من ذلك ستترسَّخ وتتعزَّز؟ ينتظر الكثيرون هنا، والبعض في إيران؛ آملين بأن تسترد العلمانيَّة موقعها مُجدَّدًا، حتى تقع الثورة الفعلية، والحقيقية، والأبديَّة. أما أنا فأتساءل؛ إلى أين سينتهي بهم هذا الطريق المتفرِّد، الذي يسعون من خلاله خلف «شيء مختلف تمامًا»؛ كل ذلك في مواجهة التعنُّت الذي يتحكم في مصيرهم، وفي مواجهة كل ما كانوا عليه مدى القرون الماضية.

مستودَعُ بارودٍ اسمهُ الإسلام[1]

طهران. «في الحادي عشر من فبراير ١٩٧٩م؛ وقعت الثورة في إيران»؛ أشعر أني سأقرأ هذه الجملة في صحف الغد، وفي كتب التاريخ التي يطويها المستقبل. لقد تجلَّى، في نهاية المطاف؛ مشهد مألوف من هذه السلسلة من الأحداث الغريبة، التي طبعت السياسة الإيرانيَّة خلال الاثنا عشر شهرًا الأخيرة. كان من الصعوبة بمكان أن نطلق اسم «الثورة» على تلك القائمة الطويلة من الاحتفالات، وأيام الحداد، وملايين الرجال الذين يتضرَّعون إلى الله في الشوارع، والملالي الذين يدعون إلى الانتفاض والصلاة في تجمُّعات المقابر، والخطب التي توزَّع على أشرطة الكاسيت، وذلك العجوز الذي يعبرُ كل يوم شارعًا بإحدى ضواحي باريس؛ ليسجُد في صلاته باتجاه قِبلَة المسلمين.

أما اليوم، فأشعر أن الأمر صار مألوفًا لنا؛ إذ نُصِبَت المتاريس، ونُهِبَت مخازن السلاح، والتأم على عجل مجلسٌ لم يَدَعْ للوزراء كثير وقتٍ للاستقالة، قبل أن تُكسَر النوافذ بالأحجار المتطايرة، وتتحطم الأبواب تحت ضغط الحشود. وعلى هامش هذه الأحداث، وثَّق التاريخ اسم الثورة بخاتم أحمر اللون. أما الدين فقد رفع عنها الستار، وسيتفرَّق الملالي الآن عائدين في أفواج تعتمُّ بالسواد والبياض. لقد تغيَّر الديكور العام للمشهد، وبدأ الحدث الرئيسي -الموسوم بالصراع الطبقي والطليعة المسلحة، والحزب الذي ينظم الجماهير الشعبية، وما إلى ذلك من تفاصيل- أصحيحٌ هذا كله؟

---

(1) February 13, 1979: «Une poudrière appelée islam». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 759-761.

لا يلزم للمرء أن يكون نافذ البصيرة، ليدرك أن الشاه مات سياسيًّا بالفعل خلال شهور الصيف الماضي، وأن ليس بمقدور الجيش أن يُشكِّل قوَّة سياسية مستقلة. كما لا يلزم للمرء قُدرة على التنبؤ بالغيب، ليُدرِكَ أن الدين لن يكون شكلًا من أشكال التسوية؛ وإنما بالأحرى قوة فعليَّة بوسعها دفع الجماهير للانتفاض، لا في مواجهة الشاه وشرطته فحسب؛ بل في مواجهة النظام بجملته، وفي مواجهة نمطٍ كاملٍ في الحياة وعالم بأسره. واليوم، اتضحت الأمور بجلاءٍ تام، حتى صار بوسعنا تتبُّع ما يمكن أن نُطلِقَ عليه: استراتيجية الحركة الدينيَّة. فقد كانت المظاهرات الطويلة -الدامية أحيانًا، دون أن يحول ذلك دون تكرارها- أفعالًا قانونية وسياسية في الوقت نفسه، بحيث حرمت الشاه من شرعيته، وسلخت عن الموظفين السياسيين صفتهم التمثيلية. لقد تراجعت الجبهة الوطنية، وحاول بختيار في المقابل أن يقاوم، وأن ينال شرعيَّة ظنَّ أنه يستحقها، بوصفه من فاوض لضمان رحيل الشاه دون عودة؛ لكن بلا جدوى.

وكانت العقبة الثانية هي الأمريكيون، الذين بدا أنهم لعبوا دورًا هائلًا، لكنَّهم استسلموا رغم ذلك للأمر الواقع بسبب العجز، وفي الوقت نفسه نتيجة لحساباتهم. فبدلًا من تحمُّل عناء دعم نظام يحتضر، وعلاقات قائمةٍ على التسوية؛ فضَّلوا السماح بتطوُّر الوضع على طريقة تشيلي، أي إثارة النزاعات الداخلية ثم التدخُّل بعدها في دور الوسطاء. ربما ظنوا أن وجود هذه الحركة سيُعجِّل بتحقيق اتفاق في الشرق الأوسط؛ إذ باتت الحركة في إيران مصدر قلق عميق لجميع الأنظمة في المنطقة، أيًّا كانت طبيعتها. وهذا ما شعر به الفلسطينيون والإسرائيليون من فورهم؛ فدعا الفلسطينيون آية الله إلى تحرير البقاع المقدَّسة في فلسطين، أما الإسرائيليون فاعتبروا ذلك سببًا إضافيًّا لعدم التنازُل عن أي شيء.

أما الجيش، بوصفه عقبةً؛ فقد أصابه الشلل بسبب التيارات التي تخترقه. لكِنَّ هذا الشلل، الذي كان إضافةً مهمة لرصيد المعارضة في ظل حكم الشاه؛ صار خطرًا داهِمًا حين استشعر كل تيار حريته في التصرف كيفما شاء، وذلك في غياب

أي سلطة جامعة. ولذا، كان لزامًا كسب دعم قطاعات الجيش، الواحِدَ تلو الآخر؛ دون المخاطرة بالدفع في اتجاه تفكيكها.

لكن الصدام وقع بأسرع من المتوقَّع. وسواء أكان تدبيرًا مُسبقًا، أم نتيجة حادِثٍ غير مرتَّبٍ؛ فقد هاجمت نواة من «صقور» العسكريين فصيل الجيش الذي ساند آية الله الخميني، مما عجَّل بتقارُب الفصيل المذكور مع الجماهير، حتى تجاوز التقارُب توفير الدعم والمشاركة في المظاهرات. ثم سرعان ما انتقل الأمر إلى مرحلة توزيع السلاح، وهي المرحلة التي تشكل بامتياز ذروة كل انتفاضة ثوريَّة.

هذا التوزيع هو الذي وازن الأمور وساعد على تجنُّب الحرب الأهلية. فقد أدركت قيادة الجيش أن قسمًا كبيرًا من القوات صار خارج سيطرتها، وأن ما تسرَّب من ترسانات كاف لتسليح عشرات وعشرات الآلاف من المدنيين، وأنه من الأفضل الانضمام للحركة الثوريَّة، انضمامًا جماعيًّا؛ قبل أن يعتاد السكان حمل السلاح، ربما لفترة ممتدَّة وغير معلومة. وعلى الفور، ردَّ الزعماء الدينيون المجاملةَ بالمثل؛ فأعطوا الأمر بإعادة السلاح إلى مخازنه.

واليوم، وقد بلغ الأمر إلى هذه المرحلة، وهو وضع لم يبلغ بعدُ إلى غايته؛ ربما أظهرت «الثورة» في بعض لحظاتها بعضًا من سماتِها المألوفة، لكن الأمور ما تزال غامضة بشكل لافت.

فالجيش المتحالِفُ مع رجال الدين، دون أن يتفكَّك تمامًا؛ سيزيد ثقله، وستتنافس تياراتُهُ المختلفة -في الظل- على من سيكون «الحارس» الجديد للنظام، إذ يحميه ويحافظ على تماسكه، ويضغط عليه أيضًا عند اللزوم.

ولا بد أن البعض، في أقصى طيف القوى الفاعِلة؛ لن يتخلى عن السلاح طواعية. إذ ربما فكَّر «الماركسيون اللينينيون»، الذين لم يكن دورهم هيِّنًا في الحركة؛ في وجوب الانتقال من حركة الكتلة الجماهيرية إلى الصراع الطبقي. ولأنهم لم يكونوا «الطليعة»، التي توحِّد الجماهير وتدفعهم للثورة؛ سيحاولون

أن يكونوا القوة التي بيدها القرار لتُضيء الطريق، حين يعمُّ الالتباس؛ إذ تدفع الأوضاع نحو الانفجار، ليسهُل عليها التفكيك.

ويتبقى خيارٌ حاسمٌ لهذه الحركة، التي حقَّقت نتيجةً قلَّ نظيرها في خِضَمِّ القرن العشرين؛ وهي أن شعبًا أعزل انتفض على بكرة أبيه، وأطاح بنظام قوي شديد البأس، ومن ثم؛ فإن أهميتَها التاريخية قد لا ترتبط بمدى تطابُقها مع النموذج «الثوري»، المعترَف به نظريًّا؛ بل بقدرتها على خلخلة المعطيات السياسية في الشرق الأوسط، ومن ثم تغيير التوازن الاستراتيجي العالمي. ومن المرجَّح أن فرادتَها، التي هي مصدر قوتها حتى الآن؛ ستكون كذلك مصدر قوَّتِها في التوسُّع والانتشار بعد ذلك. إن صفتها، كحركة «إسلامية»؛ هي ما ستمكِّنها من إشعال فتيل المنطقة بأسرِها، والإطاحة بالأنظمة غير المستقِرَّة، وإثارة قلق الأنظمة الأكثر صلابة. ومن المرجَّح أن يُشكِّلَ الإسلامُ -وهو ليس مجرد دين، بل نمطُ حياة، وانتماء لتاريخ وحضارة- مستودع بارود بحجم مئات الملايين من الرجال. لذا، ومنذ يوم أمس؛ بات ممكنًا لأي دولةٍ إسلاميةٍ أن تقع فيها ثورة من الداخل، انطلاقًا من تقاليدها العلمانية ذاتها.

ويجب التساؤل، والحال هذه؛ بأنه إذا كانت المطالبة بـ«الحقوق العادلة للشعب الفلسطيني» لم تستنهِض الشعوب العربية يومًا، فما الذي سيحدث لو تلقَّت هذه القضية ديناميكيَّة حركة إسلامية أقوى بكثير من المرجعيَّة الماركسيَّة اللينينيَّة أو الماويَّة؟ وفي المقابل، يتعيَّن علينا التساؤل عن ماهية القوة التي ستحصل عليها حركة الخميني «الدينية»، إذا ما وضعت نُصْبَ عينيها هدف تحرير فلسطين؟ من الآن فصاعِدًا؛ لن يتدفَّق نهر الأردن بعيدًا عن إيران.

ميشيل فوكو وإيران[١]

اقترحت عليَّ صحيفة «لوماتان»،[٢] قبل أسبوعين؛ كتابة رد على السيد «دوبري ريتزن»،[٣] واليوم يطلبون إليَّ الرد على السيد والسيدة بروريال. وفيم عَدَّني الأوَّل مُعاديًا للطب النفسي، اعتبرني الآخران «مُناهِضًا للقضاء». ولن أرُدَّ على أيٍّ منهما، لأني لم أشارك -مطلقًا- في أيِّ سجالاتٍ كلاميَّةٍ، ولا أنوي البدء بذلك الآن. السبب المبدئي الآخر لرفضي الرد، هو أني لا أقبلُ أن «يُطالبني بعضهم بأن أعترف بأخطائي». إذ يذكرني التعبير والممارسة اللتان يشير إليهما ذلك كله بأشياء كثيرة لطالما حاربتُ ضدها، ولن أرتضي أبدًا بأن أُقحم نفسي، حتى إنْ كان ذلك عن طريق الصحافة؛ في لعبة أرى شكلها وآثارها مقيتة.

يتشدَّق بعضهم بعبارة: «إما أن تعترف أو أنك مع القتلة»، من منطلق مهني؛ ويتلمَّظها البعض الآخر بحكم العادة أو لملاءمتها أسلوبهم في الحديث. أما أنا فأعتقد أنه يجب إهمال هذا الأمر الزجري ليجري على شفاه من يلوكونه، ومناقشتُه

(1) March 26, 1979: «Michel Focault et l'Iran». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 762.

(٢) بعد المظاهرة التي احتجَّت فيها النساء، في الثامن من مارس [١٩٧٩م] في طهران؛ على فرض ارتداء التشادور، وهتفن: «يسقط الخميني»، لا سيما بعد عمليات الإعدام الأولى للمعارضين، على يد جماعات إسلامية شبه عسكرية؛ اتُّهِمَ ميشيل فوكو بدعم أعمى للخميني. إذ كتب الزوجان بروريال مقالًا عكس هذا الموقف، وهما من اعتُبر كتابُهما، المعنون «العودة الثانية للصين»؛ علامة على تحوُّل المثقفين اليساريين نحو الصين الماوية (كما كان كتاب «نصف السماء» لـ«كلودي بروريال» أحد أهم الكتب الدفاعية عن الثورة الثقافية). وقد نُشر المقال في صحيفة «لوماتان» وفيه «طالبا فوكو بتوضيح موقفه».

(٣) متخصص في الطب النفسي للأطفال، وعُرِفَ بعدائه المستمر لميشيل فوكو منذ صدور كتابه عن تاريخ الجنون.

فقط مع أولئك الذين يقعون خارج هذا النمط. لذا، فأنا جد متشوق لمناقشة هذه القضية -عن إيران- هنا؛ إذا أتاحت لي صحيفة «لوماتان» الفرصة. إذ يعلمنا «موريس بلانشوت»[1] أن النقد يبدأ بالانتباه والإصغاء، والحضور والأريحية.

(١) فيلسوف وكاتب وأحد آباء النظريَّة الأدبيَّة الفرنسيين (١٩٠٧-٢٠٠٣م). وقد كان لإنتاجه أثر عظيم على فلاسفة ما بعد البنيويَّة جميعًا: «جيل دولوز»، و«ميشيل فوكو»، و«جاك دريدا»، و«جان لوك نانسي». (المراجع)

رسالة مفتوحة إلى مهدي بازرگان[1]

السيد رئيس الوزراء،[2]

في شهر سبتمبر الماضي، أُطلِقَت النيران على عدَّة آلاف من الرجال والنساء في شوارع طهران. وقد سمحتم لي حينها بعقد لقاء معكم في قم، في منزل آية الله شريعتمداري؛ وهو المكان الذي وَجَدَ فيه عدد كبير من المنافحين عن حقوق الإنسان ملاذًا، في وقت كان الجنود المسلَّحون بالأسلحة الرشاشة يَقِفون بالقُرب من مدخل الزقاق المؤدي إلي المنزِل.

لقد كنتم آنذاك رئيسًا للجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في إيران. وتطلَّب ذلك منكم التحلي بالكثير من الشجاعة؛ شجاعة بدنية إذ ذقتم السَّجن، وظلَّ خطره يتربَّصُ بكم؛ ولم تنقصكم الشجاعة السياسيَّة حتمًا حين عمد الرئيس الأمريكي -مؤخَّرًا- إلى تصنيف الشاه من بين المدافعين عن حقوق الإنسان.[3] إن كثيرين

(1) April 14-20, 1979: «Lettre ouverte à Mehdi Bazargan». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 780-782.

(٢) في الخامس من فبراير، عام ١٩٧٩م؛ كلَّف آية الله الخميني «مهدي بازرگان»، البالغ من العمر ثلاثًا وسبعين عامًا؛ بتشكيل الحكومة، وفي السابع من الشهر نفسه؛ أُعلِنَت «الحكومة الإسلامية»، وفي السابع عشر منه؛ شرعت قوات خاصَّة، تدَّعي تبعيتها لآية الله الخميني؛ في إعدام المعارضين. أما «مهدي بازرگان» فهو مؤسس حركة تحرير إيران في عام ١٩٦٥م، وقد ناله -من الشاه- بسبب ذلك حكم بالسجن لعشر سنوات. كذا؛ أسس لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان عام ١٩٧٧م، ليشكل بذلك الوسيط المرموق بين التيار العلماني، من المدافعين عن حقوق الإنسان؛ وبين علماء الدين. وقد استقال من منصبه اعتراضًا على احتجاز الطلاب، أتباع «خط الإمام»؛ لرهائن السفارة الأمريكية في طهران.

(٣) في يناير ١٩٧٨م؛ أشاد الرئيس كارتر بشخص الشاه، بوصفه مدافعًا عن حقوق الإنسان.

من الإيرانيين يستشعِرون اليوم غضبًا شديدًا، حين يحاول البعض تلقينهم دروسًا صاخبة عن تلك الحقوق؛ فقد أظهروا بجلاء أنهم يعرفون كيف يدفعون بحقوقهم إلى صدارة الأولويَّات، وينالونها بجهدهم. وهم يدركون أن إدانة شاب أسود في جنوب أفريقيا العنصرية، ليست كإدانة جلاد من جلادي السافاك في طهران. فمن ذا الذي لم يستوعِب وجهة نظرهم تلك؟

لقد أوقفتم -قبل بضعة أسابيع- ما كان قد بدأ من محاكمات سريعة، وإعداماتٍ مُتسرِّعَةٍ. إذ العدالة والظلم هما المحك الحاسم في كل ثورة؛ فمن خلالهما قد تولد الثورة، وفيهما غالبًا قد تضيع وتموت. ولأنكم اعتبرتم أن الفرصة قد حانت للحوار حول ذلك علنًا؛ فقد شعرتُ أن الوقت قد صار مناسبًا لأذكركم بالحديث الذي جرى بيننا في هذا الصدد.

لقد تحدَّثنا في لقائنا عن جميع الأنظمة التي مارست الاضطهاد، بينما تدَّعي صيانة حقوق الإنسان. وأعربتم حينها عن أملٍ كامِنٍ في إمكان إيجاد ضمانةٍ حقيقيَّةٍ -لهذه الحقوق- في الإرادة التي أكَّد عليها الإيرانيون في إجماعهم على «**الحكومة الإسلامية**». وقد أعطيتم لذلك ثلاثة أسباب: أنَّ بُعدًا روحيًّا قد تخلَّل انتفاضة شعب، كان جميع المشاركين فيها يُخاطِرُون بكل شيء لصالح عالَمٍ مختلف تمامًا (وعند الكثيرين كان «كل شيء» هو حياتهم نفسها)؛ إذ لم يكنِ الهدف هو رغبتهم في تأسيس «حكومة من الملالي»، وهو التعبير الذي استعملتموه كما أظن. ثم لم يكُن كل ما رأيته، من طهران إلى عبادان؛ ليكذب حرفًا مما قلتم.

كذا، ذهبتم إلى أن الإسلام، في عمقه التاريخي وديناميَّته الحاليَّة؛ قادر، في مسألة الحقوق هذه؛ على مواجهة الرهان الكبير الذي لم تتحمَّله الاشتراكية ولا الرأسمالية، وهو أقلُّ ما يمكننا قوله في هذا السياق. واليوم، يرى البعض، ممن يظنون أنهم يعرفون الكثير عن المجتمعات الإسلامية، أو عن طبيعة أي دين؛ أن ذلك «مستحيل». لكني سأكون أشد تواضعًا منهم، فيما أرى؛ إذ باسم أي عالميَّة

أو شموليَّة يُمنع المسلمون من البحث عن مستقبلهم في إسلامٍ هم من يرسمون صورته الجديدة بأيديهم؟ ولِمَ الاشتباه الفوري في صفة «إسلامية» في عبارة «الحكومة الإسلامية»؟ إن لفظة «حكومة» وحدها كافيةٌ لإثارة اليقظة والحذر، وما من صفةٍ أخرى مضافة لها -سواء أكانت ديمقراطية، أو اشتراكية، أو ليبرالية، أو شعبية- قد تُحرِّرها من التزاماتها كحكومة.

ثم كان رأيكم أن حكومةً تنشُد الإسلام؛ ستَحُدُّ من الحقوق الأساسيَّة للسيادة المدنية، وذلك من خلال التزاماتٍ تتأسَّس على الدين. وأن هذه الحكومة، التي يُراد لها أن تكون إسلامية؛ سيتم ربطُها بملحق يتضمَّن «واجبات»، وسيتعيَّن عليها احترام هذه الصلات مع الشعب؛ ذلك لأن هذا الشعب هو من سيواجهها، بنفس هذا الدين الذي يشترِكانِ فيه. وقد بدت لي هذه الفكرة مهمة، لأنه طالما عراني تشاؤمٌ من فكرة الاحترام التلقائي، الذي قد تُضفيه الحكومات على التزاماتها. وأرى من المُستحسَن أن ينتفِضَ المحكومون ليذكِّروها أنهم لم يمنحوها حقوقًا فحسب، بل ليفرضوا عليها كذلك واجبات. لن تستطيع أيُّ حكومة الإفلات من هذه الواجبات الأساسيَّة، واستنادًا إلى وجهة النظر هذه؛ فإن المحاكمات التي تجري اليوم في إيران تُثير القلق.

ما من شيء أكثر أهمية -في تاريخ شعب ما- من اللحظات التي يَقِفُ فيها بكليَّته للقضاء على النظام الذي لم يعد يتحمله، وهي لحظات نادرة. وما من شيء أكثر أهميَّة لحياته اليومية من تلك اللحظات التي تنقلِب فيها السلطة العموميَّة على الفرد؛ فتعلِنهُ عدوًّا لها، وتقررَ القضاء عليه؛ وهي في المقابل لحظات تتكرَّر باستمرار. وفي عين هذه اللحظات تتجلَّى واجباتها الأساسيَّة، التي تقتضي الاحترام. لقد شكَّلَت المحاكمات -ذات الطبيعة السياسية- اختبارًا حاسمًا على الدوام للحكم على عدالة أي نظام، لا لأن المتهمين فيها ليسوا مُجرمين فحسب؛ ولكن لأن السلطة العمومية تظهر فيها على حقيقتها دون قناع، وتُعرِّض نفسها للحكم عليها حين تحكم هي على أعدائها.

إنها تدَّعي دومًا وجوب فرض هيبتها واحترامها، وههنا تحديدًا يتعيَّن عليها أن تكسب الاحترام كليًّا؛ ذلك أن حق الدفاع عن الشعب -الذي تدَّعيه- هو نفسُه ما يلزمها بواجبات جد ثقيلة.

ومن الواجب -بل ومن الضروري- أن يُمنَح الشخص المتهم قدرًا كافيًا من وسائل الدفاع، ومن كلِّ الحقوق الممكنة؛ من قبيل: هل «إدانتُه واضحة»؟ هل يقف ضدَّه الرأيُ العام بأكمله؟ هل هو مكروه من قبل شعبه؟ وهذا كله هو ما يمنح له حقوقًا غير قابلة للمساس؛ وواجبٌ على من يحكم إعطاؤه ميثاقًا بها وضمانًا على تمتُّعه بها. وبالنسبة لأي حكومة، فإن الجميع سواسية أمام القانون.

ومن واجبات الحكومة أيضًا أن تبين للجميع -وأود أن أحدد بالجميع: أكثرهم جهلًا وعنادًا، وأقلهم إدراكًا من المحكومين- تحت أي ظروف يمكن للسلطة أن تدَّعي لنفسها الحق في إنزال العقاب باسمه، وكيف، ولأي هدف. إن العقاب الذي قد يُرفَض تفسيرُه ربما أمكن تبريرُه، لكنه سيظل ظلمًا على الدوام، بالنسبة للشخص المدين؛ وكذلك بالنسبة لجميع المتقاضين.

وواجبٌ على كل حكومة الخضوع للمحاسبة، من كل إنسان في هذا العالم؛ قبل أن تُمارس حقًّها في الحكم على الآخرين. وأظن أنكم مثلي؛ لا تعترفون بسيادة ليست مسئولةً إلا أمام نفسها. إن الحكم ليس بدهيًّا، ولا الإدانة والقتل. ودومًا سيظلُّ ثمَّة إنسان ما، أيًّا كان وفي أي إقليم من العالم يعيش؛ قد ينتفض رافضًا تحمُّل تعذيب أو إدانة إنسان آخر. وهو ما لا يُقصَد منه بحال التدخُّل في الشؤون الداخلية لدولة ما؛ ذلك أن من كانوا يحتجُّون ضد تعذيبِ إيرانيٍّ واحدٍ في أقبية سجون السافاك، إنما كانوا يتدخَّلون في أكثر القضايا عالميَّة ومساسًا بالبشريَّة جمعاء.

وقد يُقال إن غالبية الشعب الإيراني يُظهِرونَ اليوم ثقتهم في النظام الناشئ، ومن ثمَّ؛ في ممارساته القضائية. لكن الحقيقة هي أن القبول بالحكومات، والثقة فيها، والاعتراف بتماهيها مع الشعب؛ لا يَنقُصُ من واجباتها، بل يزيدها صرامة.

وبطبيعة الحال، لستُ أملك، سيادة رئيس الوزراء؛ أي سلطة لمخاطبتكم بهذا كله، باستثناء الإذن الذي منحتموني إياه حين أعربتم لي، في اللقاء الذي جمعني بكم؛ عن أنكم تظنون أن الحكم ليس حقًّا مرغوبًا بل واجبٌ شديد الصعوبة. وإنه ليتعين عليكم أن تضمنوا للشعب ألا يندم يومًا على القوة غير المشروطة، التي استعملها لتحرير نفسه.

لا طائل من الانتفاضة ؟[1]

أعلن الإيرانيون، في الصيف الماضي؛ أنهم مستعدون للموت آلافًا مؤلَّفةً ثمنًا لرحيل الشاه عن إيران، واليوم يقول آية الله الخميني: «لتَنْزِف إيران حتى تتقوَّى الثورة».

هاتان العبارتان تبدوان مُتصلتان، وإن سرى بينهما صدى غريب. فهل يمحو الرعب الكامن في الثانية حال السُّكر التي تضمَّنتها الأولى؟

تنتمي الانتفاضات إلى التاريخ، لكنَّ تفسيرها يُفلِتُ منه بطريقةٍ ما. فالحركة التي من خلالها يقول إنسان ما، أو مجموعة أو أقليَّة بشريَّة، أو حتى شعب بأكمله: «لن أخضع بعد اليوم»، ويخاطر بحياته، مواجِهًا السلطة التي يعدها غير عادلة؛ هي في نظري حركة لا تُقهَر. لأنه ما من سلطة بوسعها القضاء على مثل هذه الحركة قضاءً مبرمًا. سيظل واقع الغيتو الذي تفجَّرت منه الثورة في وارسو، ومجاريه التي يسكنها المتمردون؛ قائمًا أبدًا. ولأنَّ الإنسان الذي ينتفض هو في نهاية المطاف إنسانٌ يستعصي على الاختزال والتفسير؛ فلابد إذن من أنَّ اجتثاثًا ما يقع ليُحدِث انقطاعًا في مجرى التاريخ وسلاسله السببيَّة الطويلة، بحيث ينتهي هذا الإنسان «فعليًّا» إلى تفضيل مواجهة احتمال الموت على يقين الطاعة والخضوع.

إنَّ جميع أشكال الحرية، سواء المكتسَبة أو المُطالَب بها، وجميع الحقوق الثمينة، بل وحتى تلك المتعلِّقة بالأشياء التي تبدو أقلَّ أهمية؛ لا شك في أنها تستَنِدُ

(1) May 11-12, 1979: «Inutile de se soulever?». In *Dits et écrits*: 1954-1988, vol. 3 (1976-1979), Bibliothèque des Sciences Humaines. Paris: Gallimard, 1994: 790-794.

هنا إلى آخر نقطة ارتكاز أكثر رسوخًا وقُربًا من «الحقوق الطبيعية». فأنْ نقول إن المجتمعات تبقى وتحيا، على مر الزمن؛ مما يحيلنا تلقائيًا إلى أن السلطات لا تتمتع بـ«بوجود مطلق»، فهذا يعني أنَّ خلف كل أشكال الإكراه والقسر، وخلف التهديد والعنف و«الإقناع»؛ ثمة احتمال تبرُز فيه تلك اللحظة، التي تصير فيها الحياة غير قابلة للمبادلة، وتعجز الحكومات عن التصرُّف، وينتَفِضُ الرجال في مواجهة المشانق والأسلحة الرشاشة.

ولأن الأمر على هذا النحو يقع «خارجَ التاريخ» وداخلَه، في الوقت نفسه؛ ولأن الجميع يُقامِرون بلعب لعبة الحياة والموت، فيمكننا أن نفهم إذن لِمَ تعثر الانتفاضات بسهولة على أنماط التعبير عنها، والدراما الخاصَّة بها؛ في الأشكال الدينيَّة. إذ إن وعود الحياة الآخرة، والعودةُ إلى زمانٍ مضى، وانتظارُ المخلِّص أو ملكوت الأرض، حيث يسود الخير بلا منازع؛ كل هذا قد شكَّل، ولقرون طويلة؛ ليس ثوبًا أيديولوجيًّا للانتفاضات فحسب، بل نمط معيشتها ذاته؛ متى سمح نمط التديُّن بذلك.

ثم ولجنا عصر «الثورة». وعلى مدى قرنين من الزمن؛ استولت الثورة على التاريخ، ونظَّمت إدراكنا للزمن، واستولَت على أحلامنا. كانت الثورة هي الجهد المهول الذي بُذِلَ لتوطين الانتفاضة داخل تاريخٍ عقلانيٍّ قابلٍ للسيطرة: لقد منحتْه شرعيَّة، ثم فرزت أشكاله وميَّزت الصالحَ والفاسد، وحدَّدت النواميس التي يجري بها هذا التاريخ؛ فعيَّنت شروطه المسبقة، وأهدافه، وطرق تحقُّقها. بل لقد حدَّدت أيضًا مهمة الثوري. إنَّ استدخال الانتفاضة بهذه الطريقة كان يفترض إظهار حقيقتها، والوصول بها إلى مآلها الفعلي. وهو وعد بديع ومخيف. سيقول البعض إنَّ الانتفاضة قد استوطنت داخل السياسة الواقعية، وسيقول آخرون إنها فتحت لها آفاقًا في التاريخ العقلاني. أما أنا، فأُفَضِّلُ السؤال الذي طرحه هوركهايمر ذات مرة، وهو سؤال ساذج وحماسيٌّ: «ولكنْ؛ لم كل هذه الرغبة في الثورة؟».

أما أولئك الذين بحثوا في إيران لا عن «الأسباب العميقة» للحركة، بل عن الطريقة التي تمَّت بها معايشتها؛ ومن حاولوا فهْمَ ما كان يجري في عقول النساء والرجال، حين عرَّضوا حياتهم للخطر؛ فقد عثروا على شيءٍ جد لافت. فالإيرانيون كانوا يكتبون عن الجوع، والإذلال، وكراهيتهم للنظام ورغبتهم في الإطاحة به؛ في فضاءٍ مُعلَّقٍ بين السماء والأرض، أيْ في مجالٍ تاريخي كانوا يحلمون به حُلمًا دينيًّا، أكثر منه كونه حلمًا سياسيًّا. لقد اشتبكوا مع آل پهلوي في مبارزةٍ كان المبتغى فيها عند كل منهم هو حياته أو موته، لكنه مآلٌ مُعلَّقٌ كذلك بتضحيات ووعود شكَّلتها عقيدة ألفيَّة الطابع. بل إن المظاهرات الشهيرة، التي لَعِبَت دورًا مهمًّا؛ كانت -في آن واحد- ردودًا فعليَّةً على تهديد الجيش (للدرجة إصابته بالشلل)، وأحداثًا تجري بالتزامُن مع الاحتفالات الدينية، ثم إحالة إلى نوعٍ من الدراما الخالدة؛ حيث السلطة ملعونة دائمًا. وفي خِضَم القرن العشرين، أظهر هذا التراكُب المدهِشُ للمشهد حركةً كانت قويَّة بما فيه الكفاية، للإطاحة بنظام يبدو الأفضل تجهيزًا وتسليحًا، حركة تسمح -في الوقت نفسه- بالاقتراب من الأحلام القديمة التي عاشها الغرب فيما مضى، حين كان يحلُم بتوطين المظاهِر الروحيَّة في أرض السياسة.

بعد سنوات من الرقابة والاضطهاد، وطبقةٍ سياسيةٍ دُفِعَت إلى الهامش، وأحزاب محظورة، وجماعاتٍ ثورية مُتهالكة؛ فإلى أي شيء سيستندُ الشعور بالأزمة، ومن ثمَّ الانتفاضة التي قادها سكانٌ أصابتْهم صدمة «التطور» و«الإصلاح» و«التمدين»؛ وكل إخفاقات النظام الأخرى؟ علامَ إنْ لم يكن على الدين؟ هذا صحيح، لكن هل يجب أن نتوقَّع زوال العنصر الديني بسرعة لصالح قوى أكثر قربًا من الواقع، وأيديولوجيات أقل «قِدَمًا» وتقليديَّة؟ ربما لا، ولأسباب عدَّة؛ سنذكرها.

بادئ ذي بدء، فإن النجاح السريع هو الذي عزَّز الشكل الذي اتخذتْه الحركة. ثم تلا ذلك صلابة مؤسسيَّة تمتَّع بها رجال الدين، الذين كان تأثيرُهم على السكَّانِ كاسِحًا، وكان أثرهم على الطموحات السياسيَّة شديدًا. وصار كامل

سياق الحركة الإسلامية واقِعًا مُكثفًا ومعقَّدًا يحيط بإيران، وذلك من خلال المكانة الاستراتيجيَّة التي تحتلها، والمفاتيح الاقتصادية التي تحتفظ بها الدولُ الإسلامية، وقوتُها الخاصة التي تمكنها من الانتشار عبر قارتين؛ إلى الحدِّ الذي لم تتبدَّد معه المحتويات المتخيَّلة للانتفاضة حين بزغ فجر الثورة، بل نُقِلَت جميعها من فورها إلى مشهدٍ سياسي بدا جاهزًا تمامًا لاستقبالها، لكنَّهُ كان في الحقيقة مشهدًا ذي طبيعة مختلفة تمامًا. مشهد امتزجت فيه قضايا كثيرة، مهمة وحاسمة؛ هي: الأمل الأكبر في إعادة بناء الإسلام كحضارة عظيمة حيَّة، والرهانات العالمية والمنافسات الإقليمية، ومشكلات الإمبريالية، ومسألة استعباد النساء، وغيرها.

لم تخضع الحركة الإيرانية لـ«قانون» الثورات، الذي يظهر بموجبه استبدادها الكامن والخفي، وذلك في خضم الحماس الأعمى الذي يجتاحُها. إن الذي صنع عُمقَ الانتفاضة، وأكثرُ ما أنجزته وتمَّت معايشتُه فيها كثافةً؛ كان التلامُس المباشِر مع رقعةِ شطرنج سياسيَّة مُثقَلَة بالضغوط والأعباء. لكنَّ هذا التلامُس لم يكن هويَّتها الفعليَّة، إذ كانت الروحانية -التي أحالنا إليها الذين أوشكوا على الموت- بعيدة البعد كله عن حكومة دموية يقودها رجال دين أصوليون. بل يريد رجال الدين الإيرانيون تأصيل هويَّة نظامهم اليوم في ذات المعاني التي احتوتْها الانتفاضة. ونحن اليوم نتصرَّف بالمثل، حين نجرِّد فِعْلَ الانتفاض من صلاحيته؛ فقط لأنه يقودنا اليوم إلى حكومة من الملالي، في زمانٍ لم يعد لمثل هذا النوع من الحكومات وجود. وفي الحالتين يسود «الخوف» مما وقع في إيران الخريف الماضي، فهو أمر لم يشهد له العالم نظيرًا منذ أمد بعيد.

ومن هنا تمامًا تنبُع الحاجة لإبراز ما هو غير قابل للاختزال في مثل هذه الحركة، وهو ما يشكل تهديدًا شديدًا أيضًا لجميع أشكال الاستبداد، في الحاضر كما في الماضي. لا ريب أنه ما من عار سينالنا حين تتغيَّر وجهات النظر، لكن ما من سببٍ يدعونا لتغيير آرائنا بحجة أننا صرنا اليوم ضد قطع الأيدي، بعد أنْ كنا بالأمس ضد كل أشكال التعذيب الذي يُمارسه السافاك.

ما من أحد يملك الحق في حض الجماهير على الثورة من أجله، ويَعِدها بأن ذلك سيُحقِّقُ تحريرًا نهائيًا لكل إنسان. كما لا أتّفِقُ أيضًا مع من يذهب إلى أنه لا طائل من الانتفاضة، إذ لن يتغيَّر شيء. إن إنسانًا يخاطر بحياته في مواجهة السلطة، لن يخضع لقانون. فهل الانتفاض صواب أم خطأ؟ دعونا نترك هذا السؤال مفتوحًا. إنما ينتفِضُ الإنسان، وهذه حقيقة؛ وبانتفاضته يتمُّ إقحامُ الذات في التاريخ، لتهبه روحها (وليست ذوات العظماء فحسب بل أي ذوات كانت). إن الجاني يوازِنُ بين حياته وبين العقاب التعسُّفي، كما يرفض المجنون أن يظل حبيسًا مُستضعفًا، ويرفض الشعب النظامَ الذي يضطهده؛ لكن ذلك كله لن يُبرئ الأول، ولن يشفي الثاني، ولن يضمن للثالث المستقبل الموعود. ولا أحد، فوق ذلك؛ ملزمٌ بالتضامُن معهم، أو أن يعتبر أن هذه الأصوات الغامضة صادِحة بالحق أو ممسكة بكَبِد الحقيقة. بل يكفي فقط أن توجد، وأنْ يوجد على نقيضها من يحرِصُ على إسكاتها؛ ليصير ثمة معنى للإصغاء لها والبحث فيما تريد قوله. هل يُفرَض علينا ههنا سؤال أخلاقي؟ ربما؛ فهل هو سؤال واقعي؟ نعم؛ بالتأكيد. وكل محاولات نزع غلالة السحر عن التاريخ لن تُجدي شيئًا حيال هذا، بل إنَّ وجود مثل هذه الأصوات هو بالضبط ما يمنح الزمن البشري صورة «التاريخ» لا صورة التطوُّر.

ولا ينفصل ذلك عن مبدأ آخر؛ هو: أن ثمة خطرًا دائمًا من السلطة التي يمارسها إنسان على آخر. ولا أعني بذلك القول أن كل سلطة هي شر بطبيعتها، بل أقول إن السلطة لا نهاية لها بفضل ما تملكه من آليَّات (ولا يعني ذلك ألَّا حدودَ لقدرتها؛ بل على العكس تمامًا). وحتى نُقيِّد هذه السُلطة؛ فإن القواعد التي تُسَنُّ لذلك ليست صارمة دومًا بما فيه الكفاية، ولا المبادئُ العالمية، التي يتمُّ رسمُها؛ بكافية أبدًا لانتزاع كل ما تستحوذ عليه هذه السلطة. إذ تتطلَّب السلطة دائمًا الموازنةَ بين قوانينَ لا يمكن خرقها وحقوقٍ لا يمكن تقييدها.

لا يحظى المثقفون في أيامنا هذه بـ«سمعةٍ» جيدة، لذا أحسب أنه يتعيَّن عليَّ استعمال اللفظة بحرصٍ شديد. وليس الوقت ملائمًا للزعم بأني لستُ مثقَّفًا، ولعل الكثيرين سيضحكون إن فعلت. فأنا إذن مثقف؛ فإذا ما سُئِلتُ كيف أصِفُ ما أفعله، لأجبتُ أنه إذا كان الخبير الاستراتيجي هو من يقول: «ما أهمية كل هؤلاء الموتى، والهتافات، بل والانتفاضة كلها؛ في مواجهة الضرورات الكبرى للجميع، وما أهمية المبدأ العام أمام هذا الوضع الخاص الذي نمر به»؛ فحينها يستوي عندي إن كان هذا الخبير سياسيًّا، أو مؤرِّخًا، أو ثوريًّا، مؤيدًا للشاه أو لآية الله؛ لأن أخلاقيَّاتي النظريَّة هي نقيض ذلك، وهي ما أصفها بأنها «ضدُّ الاستراتيجية»؛ وتعني احترامَ الفرادةَ التي تنتفِضُ، وعدم مساومة السلطة التي تنتهك ما يُعتبر عالميًّا. وهو خيارٌ بسيط وعملٌ مضنٍ في آن؛ إذ يتطلَّبُ رصدًا من خارج التاريخ لما يُعيقُ هذه الفرادة ويحركها، ويتطلب وقوفًا خلف السياسة للنظر فيما قد يُشكِّل عليها قيودًا غير مشروطة. وبعد هذا كله؛ فهذا هو عملي، ولستُ الوحيد الذي يضطلع به؛ لكنَّه العمل الذي اخترتُه لنفسي.

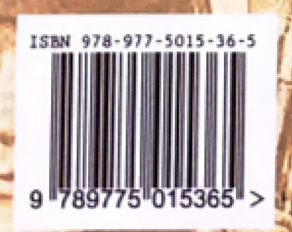
المقالات الإيرانية

ميشيل فوكو

كان موقفُ «ميشيل فوكو» من الحداثة هو الذي أفضى به إلى مشروع صحافي لدراسة الحدث الثوري الإيراني؛ فبدا تلميذًا لنيتشه ومتمرِّدًا عليه، فى آنٍ معًا؛ فقد التقط من نيتشه التزامه بـ«تجاوز الذات»، غير أنه سيَّس ذلك النشاط، الذي اقتصر ميدانه عند نيتشه على العالم الجوَّاني؛ ليتجلَّى عند فوكو انتهاكًا للممارسات الاجتماعية والذهنيَّات السائدة. وعلى هذا المستوى النقدي الجمالى، للحداثة الغربية؛ استقبل فوكو الإسلام بوصفه خبرةً سياسيةً-أخلاقيَّة عبر كتاباته عن الحدث الثوري الإيراني.

ومن هنا، كانت دراسة فوكو للحدث الثوري الإيراني مرتبطةً أشدَّ الارتباط بسؤال كانط القديم: «ما هي الاستنارة؟»؛ ذلك أن الثورة هى ذروة مُنحنى الذاتيَّة السياسيَّة الحداثيَّة. لقد أضاف فوكو الإسلام إلى معادلة الحداثة، واستطاع أن يرى فيه حلًّا لمعضلتها الرئيسة؛ وهي: غياب «الروحانيَّة السياسيَّة»، ذلك العامل الذي يُتَجاهل فى سياق الحداثة ومشكلاتها الفلسفية والسياسيَّة. إن الإسلام، بروحانيته السياسيَّة الديناميكيَّة؛ يطرح بديلًا للشكل المهيمن للذاتيَّة الماديَّة الغربيَّة، من خلال تأسيس ذاتيَّة روحانيَّة تتشكَّل في صيرورة الممارسات الدينيَّة للإسلام.

ولعل أهم ما تنطوي عليه هذه المقالات إدراك فوكو للكيفيَّة التي استطاع الإسلام من خلالها، فى غمار الحدث الثوري في إيران؛ تصفية السياسة اللاروحانيَّة، وتعريف كل من السياسي والروحي من خلال الآخر؛ من أجل إفساح الطريق لحياةٍ سياسيَّةٍ جديدةٍ لا تُشكِّلُ عقبةً أمامَ المكوِّن الروحي، وإنما تؤمِّنُ وجودَهُ وازدهارَهُ.


ISBN 978-977-5015-36-5
9 789775 015365 >


ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوپوليس غرب - القاهرة - مصر
dartanweereg
www.dartanweer.com

